الطوفان

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الكتاب: الطوفان

المؤلف: هيثم بهنام بردى

جنس الكتاب: مجموعة قصصية

الطبعة: الأولى٢٠١٦

لوحة الغلاف: للفنانة التشكيلية العراقية عفيفة لعيبي

ردمك:978-9933-544-25-6

الإخراج الفني: دار أمل الجديدة

سورية - دمشق

جوال ٠٩٣٢٤٧٢٠٩٦ -٠٩٣٢٠٠٢١٢٦ -

هاتف: ٠١١٢٧٢٤٢٩٢

E-mail:ammarkordia@yahoo.co

هيثم بهنام بردى

الطوفان

مجموعة قصصية

الوصفُ إنقاذٌ للزائل

ميلان كونديرا

شكر وتقدير

شكري وتقديري لمنظمة Salt الهولندية

التي تبنّت وتتبنّى النشاطات والفعاليات الثقافية والإبداعية الخاصة بأبناء شعبنا المهجّر...

لطبعها هذه المجموعة القصصية على نفقتها الخاصة

القصص

-أم..... ان ١١

-التمثال ٢٩

-الطوفان ٤٧

-المغني ٥٩

-أح ٦٩

أم.....ان(❖)

توطئة:

عند انسلال الخيوط الأولى للفجر تجلس في غرفة الصالون المطلة على الحديقة الفسيحة ترقب نهوضه، يتململ وينهض حالما يهجسها في فراشه الترابي الهش، تنداح ذرات التراب الأحمر منزلقة من أطراف جسده الفارع، يستوي ببطء، يطرقع عظام ظهره ورقبته، يتمطى، يتثائب بصوت مسموع، يأخذ حفنة من ترابه السرمدي، يقرب قبضته المضمومة بحرارة نحو أنفه، يسحب منها شهيقاً عميقاً، ينتشر الهدوء واللذة في أعطافه فتتراخى قسمات وجهه، ينثال ضياء ساطع من عينيه العسليتين ليقدح فضاء الحديقة بوسن مقدس، ثم يفتح كفه فتنساب ذرات من بلور من بين أصابعه لتحدد رقدته بطوق متألق من بهاء رباني يتعاظم حتى يخيل للناظر أن هذه البقعة من الأرض هي جنة عدن وقد تبدت الآن في أحلى صورها، يهمس بصوت ذي نبرة عميقة.

-أماه.

ويبتسم إذ يراها تبث من العمق، من القلب، امرأة في نهاية العقد الخامس بعينين سوداوين وشعر مسترسل وثوب فضفاض يغازل كعبين بلون الغسق، تنفتح شفتاها عن أسنان بيضاء نضيدة وتهمس بحنان.

-اعذرني على تأخيري... ثيابك كانت بليلة.

وتمد إليه ملابسه المكوية، يرتديها على عجل، يصبح سنديانة

يصعب اقتلاعها، بل زعزعتها قيد أنملة، تتجذر أطرافه في أعمق أعماق الحديقة ويهمس.

-يجب أن أذهب.

يتقدم من أمه، يتناول كفها البض ويطبع على ظاهرها المليء بالحبال الزرق قبلة يشحن بها كل معاني الحب والوفاء والتوقير، تمسد شعره المنسرح كما كانت تفعل قبل عقدين من السنين ثم تقبله من جبينه وتلهج.

-لا تتأخر على الغداء.

يمشي بخطاه الرياضية نحو الباب، يفتحه ثم يبتلعه الشارع المغتسل برشيش ضياء الصباح... تصحو من ذهولها، تنظر ثانية، الشمس في ذيل السماء، زيتونة وحيدة في باحة الدار تحنو على مستطيل من تراب يّسوره سياج من شقائق النعمان، تهمس بلوعة.

-ولدي.

ثم تعانق نظراتها المكتوية باللوعة صورته المعلقة على الحائط، تراه في الصورة طفلاً صغيراً ممدداً في جوف مهد خشبي تهدهده بحب وتغني له طوال الليل حتى يداعب الكرى أجفانه، فتهمس بشفتين مرتجفتين.

-هل يصدقني أحد...؟

البدء:

والأنامل الرقيقة البيضاء وهي تجتاز الفضاء نحو المنضدة إهتزت بغتة بفعل رعشة دافقة وتوقفت فوق الرسالة تماماً، ثم انتشر ألق كالبرق في العينين السوداوين، وارتسمت في المدى الفسيح لنقطتي البؤبؤين صورة رسالة مطوية تفضها يد بيضاء راجفة، لتقرأ:

"لا تنسى وصيتي يا أمي... زيتونتي الحبيبة. تتبدى الآن من خلل الدخان المتكاسح في المدى الأزرق للسماء الشاسعة قوس قزح أثيري، أتمنى أيتها الأم المختمرة بالحنان، أن نكون سوية والى الأبد، أنا وأنت والزيتونة.."

وساحت نظراتها الهامية في الفضاء المترامي خلل زجاج النافذة، رأته... طيفاً جميلاً متسامقاً يتفجر رجولة، تسّمر ممهوراً بابتسامة رضا، خطا صوبها، إحتضنته.... قددّته في وجدانها وحشاياها وتنسمت منه حرارة تفصح عن حنان البنوة وهي تنز من شفتيه، ونظرة متألقة تزين عينيه، وتعب لا يخفى يعانق جبينه من خلل قطرات العرق النازة من جبينه، مشى صوب الصالة، قال.

-إني جائع.

ثم بعد فترة صمت.

-سأتحمم ريثما تعدي لي الغداء.

******

المتن:

.... وانقلبت عيناها مخترقة زجاج النافذة نحو الزيتونة السامقة كعمود من الضوء العسجدي فوق عشب الحديقة، ثم انحدرتا نحو أسفل الجذع حيث تنفرش تربة ندية تشكل مستطيلاً متناهي الطول، إرتعص جسدها كمن تآصر مع البرداء واختلطت الآهة الحبيسة ببقايا الصوت.

-ولدي.

وصوت الجرس يرن بخجل مرتين، هتفت

-أين أنتم؟ جرس الباب يرن.

لم يجبها أحد، اخترقت الباحة على عجل، أمسكت بمقبض الباب وفتحته، كان ثمة .....؟؟؟!!!!!.

****

صورة في ذاكرة الإبن:

سألها.

-أتحبين الحرب يا أمي..؟

صمتت لحظة وأجابت.

-هناك فرق بين حرب وحرب.

-كيف..؟

-هناك حرب من أجل الحق..؟ هذه الحرب أحسّها واجبة لأنها

حرب وجود.

-صدقت يا أم..

ثم شملهما الصمت فأنشأت تتأمله وهو بملابسه المكوية الأنيقة، ووجهه ينم عن براءة طفولية وهو يلوك طعامه بتمهل، نظر إليها، رآها تنتظر وفي عينيها فضول لم يستكنه سابقاً، قال كمن يكلم نفسه.

-ونحن في العراء، على عتبة الصحراء أقصى الجنوب الغربي، ونحن في هذا المدى الشاسع المتشابك، فراشنا الرمل وغطاؤنا نجوم السماء، نحس جميعاً بذلك الخشوع والصفاء الذي يدفع الإنسان إلى الصلاة، نعم يا أماه، هذا ما نحس به تماماً في ليالي العراء المقمرة، نلوذ بالصمت والذكريات لا نسمع في الهزيع الأخير سوى أنفاس منتظمة لأوادم لائذة بالصمت والترقب والخوف من المجهول.. تصير الكثبان الرملية المتحركة في تلك اللحظات محراباً لصلواتنا وذكرياتنا وحاضرنا ومستقبلنا، وتهوم الروح محلّقة عبر الزمان لتجبل في الخيال صوراً مفترضة لأيامنا القادمة فننسى كل الحاضر، تغيب التلال والنجوم والليل الطويل والملاجئ، كل هذا يغيب في لمح البصر، ويبقى الخيال هو الشاخص الوحيد للنشوة القصيرة التي ينسجها كلٌ في وجدانه.. بيد أن أنيناً خافتاً لمروحية أو طائرة قادمة أو ذاهبة يعيدنا إلى الواقع فنلوذ بالمواضع ويختفي العالم المفترض الذي يشيده كل واحد منا لنفسه في غياهب العتمة، ونصحو على الواقع، ميدان عار، ليل، مواضع، حذر، ترقب.

-والحرب؟.

-الحرب، أو بالأحرى المعركة قد تأتي في أية لحظة، فالبعض منا بقي أسير هاجس الخوف، يخاف من أي شيء، يركض نحو الموضع لأية نأمة، أو صفير ريح، أو قصف رعد، والبعض الآخر ارتكن إلى اللامبالاة بحيث لا يتزعزع من مكانه أو يحتمي حتى لو تيقن بأن الأتي هو سلاح حقيقي.

-وأنت؟

-صمت لحظة ليست بالقصيرة ثم نبر.

-الحالة التي تتلبسني يا أمي عجيبة قد لا يصدقني أي إنسان ولكنك حتماً تفعلين هذا، عندما أفكر بالحرب، وأشعر بقرب وقوعها، ألوذ بالموضع، يصير الموضع في تلك اللحظة كياناً آدمياً له لحم ودم وإحساس، فهو كالطير يحاول أن يضمني بين جنحيه ليجّنبني الخطر الداهم.

-هذا حلو.. أين العجب إذن؟

-العجب.. هي إني أحسها أنت مرة، والزيتونة مرة أخرى.

-كيف...؟

-عندما أشعر بالخطر يصبح موضعي أمي الحبيبة احتمي بأنفاسها الدافئة، ويصبح أحياناً أخرى زيتونتنا المباركة...

-إن خيالك جامح يا بني.. ولكنه خيال جميل.

-إنها الحقيقة يا أماه..

-نظر إلى ساعته، نهض، تقدم صوبها، قّبل وجنتيها، ثم قال.

-هذه زوادتي هناك.

-قبلتـه بحنـو أمـومي جـارف، خـرج، تقـدم نحـو الزيتونـة، احتضن جذعها ثم قبله وخطا صوب الباب.

******

تداعيات:

وارتفعت نظراتها نحو الحائط وعانقت صورته الكبيرة، كان فمه يفتر عن ابتسامة صغيرة، .. عجباً، قالت لنفسها كيف لم تلاحظ هذا من قبل..؟ أهي حقاً ابتسامة..؟ ثلاث سنوات والصورة معلقة لم ترَ أية ابتسامة؟ أهو تصور أو وهم..؟ فركت عينها جيداً وحدقت، .. نعم إنه يبتسم؟.

-نعم.. أني ابتسم.

-من...؟

-أنا .

-كبدي..؟!

وتلفتت في أرجاء الصالة، عيناها تدوران بجنون في محجريهما.

-أين أنت؟

-في الصورة.

وخززت تفاصيل الوجه بنظراتها الهامية، سمعته يقول.

-كم أنت رائعة يا أمي.

هل هذا افتراض أم انه لباب الحقيقة، الصورة تبتسم، تهمس بصوت كنواح الفاختة.

-إني لا أراك.

-إنني قريب جداً منك.

-ولكني لا أرى سوى صورة، صورتك وأنت تبتسم.

-يكفي أن أراك أنا.

-إبني الحبيب..؟!..

فقدت النطق واللسان حين لمحته بقامته المديدة يقف في فم الصالة، ما هذا يا الهي..؟ هاهو بلحمه ودمه يقف أمامها، إنها المعجزة، ابني ماثل أمامي بوجهه النوراني..؟!!!.

كان يقف كالتمثال، لا.. ليس تمثالاً، إن أهدابه ترمش وشفتيه تختلجان وعينيه تومضان، أحست بكفيه تحتويان وجهها، وبشفتيه تلثمان جبينها بقبلة طفولية آسرة، تماسكت ونهضت، احتضنته..

-ولدي.

وأجلسته أمامها وأنشأت توشم في وجهه شواهد أصابعها المرتجفة.. وجهه وضاء كالشمس وثمة هالة من ضوء ساطع دائري يحف هامته وينير جنبات الغرفة، ثيابه بيضاء كنديف الثلج، ولكن ثمة ثقب صغير أعلى البطن في الجهة اليسرى.

-هنا...؟

همست بتوجع..

- في الصدر..
- قرب القلب يا أمي..

******

الثيمة:

كانت المدينة وهي تغفو على الساحل الرملي أشبه بكتلة رصاصية تصطلي بنار الشمس نهاراً وأسياخ البرد الصحراوي ليلاً، منذ أيام نربض في مواقعنا وعيوننا ووجيب قلوبنا وشهيقنا المتسارع المتصادي مع الزفير، وكل خلايا أجسادنا في ترقب محموم نحو تلك اللحظة النادرة التي نواجه فيها طلائع القوة المهاجمة لكي ندرأ عن مدينتا الحنون غمام.. الجفاء، اليبوس، الازورار، والتجهم.. كنا بمنأى عن أنظار طائراتهم وأرصادهم المتطورة ونحن نتدفأ بطن الصحراء القائظ المقرور، صارت الصحراء لنا أباً وأماً وملاذاً، .. أمد يدي في ساعات الخلوة واغرف حفنة رمل، أقربها من عيني، إنها عين ذرات الرمل التي أراها في فناء دارتنا العامرة ، إنها صنوها تماماً، إن لم تكن هي.. واشخص ببصري إلى مدينتي التي حزمت بأجسادنا المتوثبة، إنها كسائر المدن عندنا، لا فرق بين ابنتيها وشوارعها وأزقتها وقبابها، وأبنية وشوارع وقباب أية مدينة أخرى من وطني، .. تقترب مني نملة تنوء بحمل كسرة خبز تعادل وزنها أربع أو خمس مرات، أتأملها وهي تعاود الكرة بإصرار

عجيب لإيصال مؤونتها إلى قنها في موضعي حيث تخرج وتدخل أسراب النمل بدأب لا يستكين، تدخل محملة وتخرج فارغة، وفي تسارع أجسادها إصرار عجيب على تكوين وديمومة عجلة الحياة عندهم بكل هندستها ونظامها العجيب.. مددت أناملي وحملت كسرة الخبز ووضعتها على باب القن، تقدمت النملة بدون كلال ودحرجت الكسرة نحو الفوهة ثم اختفتا.. وظهرت ثانية، قد تكون غيرها لأن النمل يتشابه، ولكن يقيني أخبرني أنها هي سيما عندما تقدمت أمام سبابتي ثم عاودت السعي مع صويحباتها الكثر نحو هدفها.. رفعت رأسي وتأملت الصحراء وفكرت.. ها هي الشمس تجنح نحو المغيب ونحن نترقب اللحظة الحاسمة الآتية لا ريب فيها، وفي نفس كل منا يستيقظ إحساس أن هذا المكان سيكون ميداناً لأم سترش وراء أولادها طاسات من الماء البارد أملا في أكليل الغار أو العودة الظافرة.

التقط أنفاسه وصحا تماماً، نظر إلى أمه، كانت عبارة عن لاقطات، ملايين اللاقطات تتسمع نبرات صوته، أو بوحه، أو اعترافه، أو صلاته، بقامته الرشيقة الواقفة قرب النافذة وعيناه ملتصقان بالزيتونة، التفت إليها على حين غرة ورفعها بنظرة حيرى وسألها بوجل.

- أمي.. هل التزمت بالوصية؟

رددت كالببغاء.

- الوصية؟!

- هل نسيت؟

وتذكرت، كان عقلها في وادٍ مقفر، وفجأة تطامن الصدى في جنباته مثل النواقيس.

- نعم يا بني..
- الزيتونة..
- تحت الجذع.

وبسمة باهرة تستوطن فمه الدقيق.

- عاين المكان.

نظر بإمعان وابتسم، همس..

- انه جميل، فراش من شقائق النعمان.

كان جسده يرتعش، وثمة عمود من شلال بارق ينث من جسده ويحلق مغطياً فضاء الساحة، لترى منظراً لن يتهيأ لمخلوق ارضي أن يعاينه قط، رأت ابنين.

الأول: يسبح في هالة من الضياء قرب النافذة وقد انتشرت ورود شقائق النعمان حول جسده. الثاني: يطلع من مثواه محلقاً في فضاء الحديقة وثمة إكليل من ضياء يطوق رأسه.

شعرت بأنها انفصلت عن العالم وأنها من مخلوقات الفردوس، أو مخلوق يعاين لحظة من لحظات خبايا الفردوس في غفلة من الملائكة، ثم أرجعها لحن ساحر يعم البيت ترافقه جملة واحدة فقط..

- يا زيتونة.

ثم عم الهدوء أرجاء البيت، عادت إليها حواسها لتجد ابنها متجهاً بجوارحه نحو الزيتونة وهو يكلمها بهمس كالخرير... المدينة أشبه بأطلال دارسة، الشوارع مقفرة تسترجع صدى الفوضى التي عمت أرجاءها بفعل المفاجأة غير المتوقعة إذ اقتحمها الأعداء على حين غرة بينما لم تصمد دفاعاتنا كثيرا نظرا لتوفر عنصري المباغتة والمراوغة والخدعة لديهم فلاذ المدافعون بالأزقة وتوسد الآخرون إسفلت الشوارع والأرصفة يواجهون السماء بنزيف الدم وحشرجة الاحتضار والموت المرسل كزخات برقية من مدافع القوات النظامية المداهمة، صارت المدينة كقشة في ذمة أمواه بحر ممسوس بالعته.

أتملى المكان، نهار يفتقد شمسه، ولا شيء سوى أصوات محركات العجلات وهي توسم إسفلت الشوارع باسوداد دواليبها، أسلاك الكهرباء على جانبيها تصفر مع الريح لحناً جنائزياً حزيناً يترجم لوعتها بافتقادها للحساسين والحمائم وهي تتمرجح على جدائلها الفولاذية، السماء رصاصية كئيبة ثقيلة، العمارات خرساء مغلقة الأبواب والنوافذ والعيون والقلوب، والأنفاس في أحشائها متسارعة مسموعة تترقب المجهول الآتي، سحب الدخان الأسود تتصاعد نحو السماء مثل أفعى تتلوى بغنج من أسطح البيوت وقمم العمارات، والرصاص فقط هو لغة الحوار.. وحين عبرت الرصيف إلى أحد الأزقة الجانبية، شعرت باهتزاز صاعق في صدري وحرارة ثاوية في حلقي، تمالكت وحاولت أن أتماسك، بيد

أن شلال الدم الناز من أسفل صدري الأيسر جعلني أتهالك على الحائط، احتواني شابان بين ذراعيهما وحين لمحا شلال الدم الشاخب أسفل صدري حملاني وسمعتهما وأنا أتوسد حشية وسادة من ريش نعام ناعس لم ألمس مثله من قبل، وسمعت همساً عطوفاً.

- لا تخف، انه جرح صغير فقط.

وحملاني الشابان وهرولا نحو المشفى المبتسم في نهاية الشارع، لحظتها رأيتكما معاً، أيتها الزيتونة المباركة، أنت وأمي، تقفان أمامي بعناد المودة وحنان الملائكة، تحملني أمي من كتفيّ وتحمليني أيتها الرؤوم من قدميّ سمعت صدى وجيب قلبيكما يعزفان معاً أجمل لحن: لحن الأمر الخائفة على ولدها، سمعت صوت أمي الجزعة.

- يا ولدي الحبيب.

وسمعت صوتك الجزع.

- يا ولدي الحبيب.

وانسابت أمامي كالحلم: صورة طفولتي.. كنتِ يا غالية كفتاة مراهقة غادة بجدائل زاحفة على قد مياس، فارعة الطول، خضراء الوجه والقلب، كنتُ أهرول إزاء أطرافك الفارعة الممتلئة، أحاول تسلقهما إلى حباتك الخضر الجميلة، ولكني كنت اسقط فتنطلقين بضحكة كبسمات الصباحات النيسانية، فأنهض نافضاً ثيابي من التراب العالق وأتملى قدك بعجز وأسف وأشاركك الضحك، ثم أتوقف، وأسمع ضحكة أمي الواقفة في

الطوار، .. ما أشبه الضحكتان، ضحكة الزيتونة، وضحكة الأم... تضحكان دوماً، أنت وأمي بنفس الملامح والسمات، تصيران وجهاً واحداً بروح.. حامت أمام مقلتي غيمة رمضاء، وهزتني في صدري صعقة كهربائية فأغمضت مستشعراً ألماً ثاوياً يسري في صدري إلى حلقي، وخدر ثقيل يعتقل أوصالي فتسقط ذراعاي كشلوين، وسمعت صوتاً يتحمم بشلال من الحنان والأسى والترقب.

- أيها النفيس.

وأتساءل.

- أيكما يهتف باسمي؟

والمح نفسي في السماء، أطير محمولاً من قبل طيور خضر تحمل سمات وجه واحد، تتشابه إلى حد بعيد مع سمات المباركتين وثمة غناء أو صداح، أو هديل أو ترنيمة، أو تغريدة، أو ترتيل يغطي الكون، واستشعر روحي خفيفة نقية كالبلور...

وانبثقت يا شجرة يا أم إمامي آية في الروعة، كانت يداك مفتوحتين علي سعتيهما، وشيء ما، لدن وناعم، مثل الطحين يصعد من أعماقي ويخترق صدري بليونة ويسر، أسلمك ذاتي مثل رضيع، التقطيني، طوحت جسدي الفتي البض في الهواء ثم احتويتني ثانية، دغدغتيني من خاصرتي، كركرت حتى الثمالة، ثم ارتكنت على صدركِ، رفعت رأسي وحدقت في وجهك، سألتك:

- أين..؟

- البيت.
- حقاً!!.
- وحياتك.

قلت بفرح لا حدود له.

- ونلعب من جديد؟
- نعم.
- ولن تكوني عصية؟
- لن أكون يا حبيبي
- ونرى أمي وأبي وأخوتي كل حين؟.
- إلى الأبد.
- هيا يا أم.. هيا.

******

البداية:

لجة عميقة، أو عاصفة هوجاء، أو قصف رعد كاسح، انتزعه من عالمه القدسي، الحني، الخالد.. وألقاه من عالمه القشيب الأخاذ إلى موقفه السابق... وقفة واثقة قرب النافذة وعيناه مصوبتان كالسهم نحو الزيتونة، حدق في أمه وابتسم.

- سرحت يا أمُ.
- لقد كنت معك، يا ولدي، ومع زيتونتك.

وأسرعت إليه، احتضنته بعنف، شهقت، فانهار السد وانبثق الدمع كالسيل، كالموج، يغرق الملامح والرقبة والجسد، اغتسل بالدمع الهاطل كمطر استوائي، إستاف الحضن الدافئ للأم التي كانت تطل عليه في المهد وابتسامات الملائكة تحف به من كل حدب، توقفت العاصفة وارتكن كل شيء إلى الصمت، رفع كفيها ولثمهما بتقديس، وهمس.

- علي أن اذهب.

قال كبدها المتشظي إلى آلاف الشظايا.

- ملاكي.

- سأزورك دوماً يا أروع أُم.

إحتوته غيمة بيضاء واختفى، خرجت من الصالة متوجهة نحو الزيتونة، وقفت إزاءها واحتضنت جذعها، توحد النبضان، وهمست.

- كان هنا.

..... كانت الزيتونة تكفكف دموعها.

******

(❖) لك الخَيار في فتح الألف أو ضمها.

التمثال

في زمنٍ ما... ومكانٍ ما

مثل كل الليالي ينسل الرجال بعد الغروب من بيوتهم الغافية على حافة البساتين المتطامنة إلى عمق الأفق، وتتخاطف الأقدام متسارعة، متباطئة، أو بينَ بينْ، نحو مقهى القرية المنزوي في أقصى الجنوب.

******

دخل رجل في ميعة العمر، وقف على العتبة، تأمل الوجوه بعينين زائغتين ثم اتجه نحو صاحب المقهى وهمس في أذنه بشيء ما، وجلس على أقرب مقعد يلتقط أنفاسه اللاهثة، خطا صاحب المقهى نحو رجل جالس على مقعد أنيق يتبوأ صدر المجلس، انكب عليه وهمس في أذنه... بان الاهتمام على سيماء الرجل ثم نبر.

-اجمع الرجال في الحال.

فالتفت صاحب المقهى نحو بعض الشباب المنهمكين في نقاش ما، وهتف.

-العمدة يريد رجال الضيعة في المقهى لأمر هام جداً.

وانهمك بتغذية الجمر تحت الموقد بالمزيد من الفحم فتحلق الدخان الأبيض مسافراً عبر فضاء المقهى ليصطدم بسقفها القرميدي ويرتد متهاوياً فوق الأجساد المرتخية في أجواف المقاعد، إلى أن اهتدي إلى الباب وخرج متلفعاً بالليل السادر من فوق رأس

الرجل الأشعث الزائغ العينين الذي كان يبحلق في السماء المرصعة بالنجوم ويهمس بحرارة.

-"من أنت...؟!"

قال الرجل الذي دخل المقهى لتوه.

-مسكين... انه يكلم نفسه كالعادة.

أجابه صاحب المقهى وهو يصب الشاي في الأقداح.

-هذا ديدنه كل مساء.

ثم استطرد مخاطباً الرجل.

-هيا إلحق بالشباب، وبلّغ رجال القرية بالمجيء إلى المقهى فوراً.

-لماذا...؟

-ستعرف لاحقاً.

-أهو أمر خطير؟

-بل جد خطير.

-حقاً؟؟!.

-هيا انطلق فالوقت من ذهب.

والرجل الأشعث لا يزال في حالة ذهول مطبق يهمس.

-"من أنت..؟"

-"أنا ابنك"

-"ابني الحبيب، هلم عانقني"

أسر صاحب المقهى لنفسه.

-انه يقبّل الهواء.

أجابه العمدة.

-كانت صدمة قاضية.

وبعد ان انتهى من التقبيل قال بحميمية.

-"نعم، حاضر..."

والتفت إلى صاحب المقهى، وصاح بفرح لا حدود له

-فنجانان من القهوة الحلوة.

-فنجانان...؟! لمن يا رجل؟

استتلى الأشعث وهو يفرك كفيه ببعضهما.

-أحدهم لي، والآخر لابني.

غمغم صاحب المقهى بحزن.

-مرحى لروحك.

ثم أجاب بنبرة شحنها بالفرح

-دقائق ويكون طلبك جاهزاً.

توافد الرجال جماعاتاً وأفراداً، امتلأ المقهى بهم، الواقفون بين المقاعد أضعاف الجالسين، تشبّع الفضاء برائحة الأنفاس ودخان السكائر ورائحة الشاي والقهوة... نهض العمدة وتوسط المكان، خيم الصمت المطبق بانتظار الآتي، أشار العمدة للشاب، نهض الشاب وهو يرتعش من الغضب، سأله العمدة.

-حدّث الرجال بما شاهدت وسمعت.

راوز الشاب الجمع المحتشد بعينين صقريتين مومضتين وقال.

-بعد المغيب وأثناء أويتي من مزرعتي لفت انتباهي صوت غريب... يبدو صوت رتل من العربات، فلبدت في مكاني أتلصص وأتنصت بحذر لأية نأمة أو صوت واليقين يحتويني ويؤكد لي أن ما أسمعه ليس وهماً... إنها أصوات هدير محركات عربات، وهي قريبة جداً، بل هي في جوف الوادي، زحفت نحو أكّمة تطل على الوادي لأتفاجأ...

التقط أنفاسه المتسارعة ثم أكمل.

-لأتفاجأ بجيش كامل من العربات وهي تقف وفق رتل واحد لينزل منها رجال مدججون بكافة أنواع الأسلحة. انحدرت نحو الوادي محتمياً بالأشجار المتشابكة ومتلفعاً بالليل الهابط إلى الوادي، حتى صرت قريباً إلى اثنين منهم، وسمعتهما يتحدثان عن اقتحام القرية في الفجر.

قطع أحد الرجال حديثه.

-من هم...؟

أجابه الشاب.

-الأعداء.

وقال آخر.

-هل أنت متأكد..؟

أجابه الشاب بنبرة واثقة.

-كل التأكيد.

ولهج ثالث.

-وسمعتهم...؟

-بل كنت وكأنني ثالثهم.

وقال رابع.

-وهل سيقتحمون القرية حقاً؟

-هكذا تحدثا.

قطع العمدة المحاججة بصوته الجهوري.

-ماذا ترون يا رجال..؟

قال أحدهم.

-لندرس الأمر بعقلنة.

سأل العمدة.

-منطق سليم.... ما رأيكم؟

إنبرى أحد الشباب.

-علينا أن نتصرف بسرعة.

-وماذا ترى أنت..؟

-نحمي وجودنا.

قال شاب آخر.

-نقاومهم.

لهج آخر بحماس.

-نتركهم طعاماً للجوارح.

التفت العمدة إلى بقية الجمع.

-وانتم ماذا ترون؟

قال رجل طاعن في السن.

-الإنسان لا يموت إلاّ من أجل الكرامة.

هتف الشاب الأول.

-والكرامة على المحك.

اسر الرجل الطاعن في السن وكأنه يحدث نفسه.

-هي قطرة طاهرة توسم الجباه.

كرر العمدة قوله لبقية الرجال.

-وبقية الرجال؟

تخالطت الأصوات متشابكة ثم تمخضت عن كلمة واحدة.. ندافع عن الضيعة. رفع العمدة كفه، فلف الصمت الوجوه، ثم نبر كمن يؤدي لحناً نحو الشاب الذي انبرى واقفاً وقال.

-نعم.

-بعد قليل ستنطلق إلى القرية المجاورة وتطلب المساندة..

وبعد فترة صمت.

-اليوم علينا وغداً القرى اللاحقة المجاورة.

صمت للحظة وأردف.

-نأمل أن تصلنا النجدة في الصباح أو عند الضحى.

ثم إلى الشاب..

-هيا انطلق.

التفت العمدة إلى الرجال وقال.

-اذهبوا إلى بيوتكم. والتجمع عند منتصف الليل في هذا

المقهى.

وانفرط عقد الرجال، كلٌ ذهب إلى داره مسكوناً بالوضع الطارئ واحتمالات الغيب المختفي وراء سجاف الليل الساعي نحو الفجر، وبعد أن كاد المقهى يفرغ من الرجال، ثقب فضاء القرية وليلها نداء الأشعث المكتوي بالحزن النبيل.

-"حسناً يا بني...؟ بلّغ تحياتي لوالدتك. دوماً على عجل، كرر زياراتك يا بني.. مع السلامة".

******

صحا الأشعث من إغفاءته وهو مستلقٍ على أريكة قديمة جنب باب المقهى، وقف مثل نمر جريح، لطم الليل بنظرة شرسة وصرخ.

-ولدي..!"

قال العمدة.

-رآه في الحلم.

صاحب المقهى.

-إنه معنا....

استطرد أحد الرجال.

-إيه يا أخي، كيف حصل هذا... كيف فقدت عقلك؟

انتبه الأشعث لهمس صاحبه الحميم، طفرت من مقلتيه دمعة صافية مثل الطل وغاص في أعماقه.

-كيف رحل...؟ لا... ابني لم يمت؟ بل استشهد، بلى

استشهد ، .... كان القمر ابن أربعة عشر حين طرق باب بيتهم، ترى ما الأمر...؟ كانت زوجته تغزل كعادتها وتغني، وكان يطربه صوتها الشجي المليء بالشجن، طرق باب البيت ثانية ، قال لنفسه.

-لأنظر من بالباب.

وبعد برهة شق سكون ليل القرية صوت نسائي ثاكل..

وقف وسط المقهى ثم اتجه بكل جوارحه نحو العمدة.

-لم يمت.

ردد العمدة بحرارة.

-انه شهيد ، والشهيد حيٌ .

نهض أحد الشبان وهزه من منكبيه بإحساس الابن الحقيقي.

-أنا ابنك.

نظر إليه المصطول بذهول ثم اهتز بدنه ولهج.

-نعم أنت ولدي الحبيب.

******

اكتمل الشمل تماماً ، الرجال وهم يتنكبون البنادق وعيونهم تأتلق بومض باهر، والأحاسيس تحاول أن تستجلى تفاصيل الساعات القليلة القادمة ، وفي الأفئدة... أعماق الأفئدة تتوهج نار بارقة تترجم ماهية الحياة، قال العمدة.

-انه الهزيع الأخير من الليل، والفجر آتٍ لا ريب.

ساد صمت عميق أرجاء المقهى فيما أكمل العمدة.

-سننتشر على طول حدود القرية في الجهة الشرقية على حافة البساتين لائذين بالتلال والكثبان.

وبعد صمت قصير..

-علينا أن نصمد لحين وصول رجال القرية المجاورة.

ومع نفسه.

-أتمنى أن يكون مبعوثنا قد أتّم المهمة.

ثم إلى الجمع المحتشد.

-هيا يا رجال.

وتقدمهم نحو باب المقهى، وحين وصل دكة الأشعث الذي عاود النوم، تفائل بالخير إذ وجده يبتسم في رؤاه.

******

دخل المسلحون القرية قبل بزوغ الشمس، كانت خاوية إلاّ من الأطفال والنساء و... الأشعث، صرخ كبيرهم بتشفٍ.

-لقد مات رجالكم يا بهائم.

تنمرت امرأة عجوز بوجهه.

-نحن رجال يا سقط المتاع

-اخرسي أيتها الكلبة!

وصفعها، ولكنها انتفضت صارخة

-أنا يا ابن الكلب.

نزعت مداسها وطفقت تصفع وجهه، أمر وهو يتراجع.

-ماذا تنتظرون؟

وحالما أنهى عبارته صار جسد العجوز منخلاً يرش الدم فوق الأرض المعشوشبة، والمداس منتصب مشهر بوجه كبير الغزاة لما يزل.

*****

-إذن ولدي حي.

همس الأشعث وهو ينظر القبر المستلقي بوداعة تحت شجرة التفاح.

-إذن ما معنى هذا؟

نفض رأسه، وهمس لنفسه.

-البارحة قال لي في المقهى، أنا حي يا أبتي، لأذهب إلى خطيبته وأخبرها أنه لا يزال حياً يرزق.

لملم ثوبه وركض نحو البستان وهو يهتف فرحاً.

-إنه حي.... إنه حي.. لم يرحل... لم يرحل.

ووصل منتصف البستان.

-أين ذهبوا؟

إندفع مارقاً بين جذوع الأشجار المتشابكة.

-أين اختفوا؟

وراكضاً لا يزال حتى وجد خطيبة ابنه، هتف مأخوذاً.

-ما هذا...؟

ثم عض نواجذه ودمدم.

-قذرون.

كانت تبكي.

-إنه لا يزال على قيد الحياة ... خطيبك حي يرزق..

-.....

-البارحة كلمني في المقهى.

-.....

-ناداني أبي، انزعي السواد يا ابنتي، ستتزوجان قريباً، أعدك بأنه سيكون عرساً لم تشهده القرية من قبل.

-.....

-لماذا أرى الوجوم على وجهكِ.

-.....

ولولت أمها.

-إنهم يرّحلوننا.

صرخ بوجه المسلحين المدججين بالحقد.

-حثالة.

وانطلق راجعاً إلى شجرة التفاح، طاشت رصاصة في الهواء، أحس بألم يستعر في كتفه، دارت الدنيا في رأسه ولكنه تمالك نفسه وواصل الجري حتى أدرك القبر، جلس أمامه وهمس بصوت كالنحيب.

-"ابني الحبيب"

جاءه صوت خافت

-"نعم يا أبي"

-"رحُّلت خطيبتك يا بني"

-"....."

سمع صوت صريف الأسنان، ثم جاءته نبرة زاخرة بالتحدي.

-"وأنت يا أبي...؟"

-"ماذا يا بني؟"

-"هل سترحل أيضاً؟"

-"لا.. لن أرحل وأترككما أنت وأمك"

-"هذا عهدي بك"

-"لن أرحل أبداً.. أبداً"

واخترق صمته صوت لغط.

-انه يكلّم نفسه سيدي.

صاح كبير الغزاة.

-أنهضوه بسرعة.

عمد مسلحان وأنهضاه وهما يتهامسان.

-يبدو معتوهاً.

قالت امرأة بصوت ينشج.

-دعوه لحاله، إنه فاقد لعقله.

-اخرسي.

بصقت المرأة بوجهه، سحب كبير الغزاة مسدسه و... تلوت المرأة متوجعة وجسدها يستقبل الرصاص، أعاد المسدس إلى حزامه وخاطبه.

-ماذا تنتظر، هيا...

نظر إلى الأرض، كانت خضراء بشكل ساحر، نظر إلى القبر، رأى ولده يقوم، يمزق كفنه ويقف بجانبه.

-"إذن لن ترحل يا أبي"

-"جذوري هنا يا رجل"

نظر إلى شجرة التفاح، كانت ترمقه بنظرة صارمة ـ حانية، وتقول.

-"ها "

-"ماذا يا أُخيّة"

-"أتتركني..؟"

-"مستحيل.."

زعق كبير الغزاة بنفاذ صبر.

-كفى جنوناً... هيا انطلق.

الأرض تحته ترتج وتقول.

-"لا ترحل.."

وزوجته الحبيبة بملابسها البيضاء تحلق أمامه وتلهج.

-"كيف تذهب وتتركني..؟"

والسماء تحنو من علٍ.

-"أيها الرجل المرشوش بمطر المحبة!؟"

الغابات تدمدم مثل جبل غاضب.

-"أنى لقدميه أن تتحملا غبار القرية .."

الأطيار.

-"هل هو الطائر المتوالد من رماده الذي نتفاخر به"

والغازي يجأر.

-تحرك.

أرعدت صرخته لتعانق الأرض والسماء .

-لا...

وقفز كالليث الجريح على صدر الغازي...أحكم قبضتيه على تفاحة ادم، تحشرج الآخر، وخرج صوته متقطعاً.

-اقتلوه.

والتحم الجسدان، وقف المسلحون حائرين، علام يطلقون، وما فتئت اليدان تعصران الرقبة والنداء يتصادى في أذنيه.

-"لا ترحل "

اليدان تعصران الرقبة بهستيريا.

-"إذن لن ترحل يا أبي؟"

انتفض الآخر وقد إزرّق وجهه.

-"لا... لا..."

وسكت الآخر وقد غادره الشهيق والزفير، استوي الليث واقفاً كالجبل ليصير جسده أرضاً خصبة لزخات الرصاص، وقف - والرصاص يحّممه -كعمود من فولاذ، تحت شجرة التفاح، بين القبرين، قبر ولده وقبر زوجته، ولم يسقط قط.

*****

صباح نفس اليوم، وبعد أن طّهر رجال القرية والقرى المعاضدة بقايا الفلول الهاربة للأعداء، وحرروا القرية، هالهم أن يروا تمثالاً هائلاً من لحم ودم لجسد يرتدي ثياباً إخترمتها الثقوب وقد اتخذت العصافير من جسده واحة ظليلة ، ومن شعر رأسه ملاذاً آمناً لبناء الأعشاش.

******

الطوفان

هتفت بنبرة راعفة.

- وستظل أيها النهر تراني، ترى وجهي الشاحب، وعيني الواسعتين القلقتين، وفمي المفتوح على سعته وكأني به يريد أن يلقي السائل اللزج، المّر حد العلقم من جوفة دفعة واحدة أو على شكل دفقات متعاقبة... وستظل تعاين رأسي المحشور بآلاف الأسئلة التي تبحث لها عن جواب، وربما ستجده يوماً ما حين تعلن مياهك الثورة ويعم الطوفان....

وغلّفك الصمت، صمت ألق كتوهج الشمس الحزيرانية فوق شعفة هامتك وهي تفرش وميضها الأخاذ على ذرات الرمل المبثوثة حولك وتتطامن ساعية نحو الأفق، نحو مياه الشط لتبدو في احتفال شمسي بهي... تهاجمك الأصوات الآدمية المتنوعة، تلقي نظرة وأنت في جلستك الحزينة على الشاطئ، ترى الأجساد الملفوحة بسعار الشمس المؤتلق وهي... تتراكض، تلعب، تتمايل، تتوقف، تستلقي على الرمال، تنتفض واقفة ازاء وجهك المشعر تاركة شواهد أجسادها البائسة على الرمال، وترى بغتة شابين يقتعدان الرمل الساخن وهما يتبادلان نظرات عشق وتدله، وثمة كومة من الرمل أو أشبه بقصر وهمي مشيد بدقة ومهارة، يقترب الوجهان من بعضهما، تتلامس أرنبتا الأنفين، الأنف الخشن المستقيم، والأنف البض الإغريقي، تشيح بوجهك خجلاً، تفكر..

- لقد قتلوا المحبة.

ثم تغمغم غاضباً.

- الطوفان.

وتتصور خارطة بلدك، تراها بصورة طفل مدمى، وثمة انفراج في الشفتين اللدنتين، قد تكون مشروع ابتسامة وُئدت، تصرخ.

- آه...

تتثال دموع طفل سفحت أنفاسه الطفلة..، يتعاظم صراخك.

- تكون أو لا تكون، تلك هي المسألة.

وتطيل النظر الى الصورة المفترضة في رأسه، فلا ترى أي أثر للطيور والشجر والسماء والنهر، بل كادر أسود جهم، فيكاظم الصوت في داخلك ملتهباً.

- الطوفان.

وتنتبه إلى نفسك، ليل شاحب يغلف المدينة المقهورة، وأفواج الناس تمرق إلى غاياتها تحت أضواء النيون الملونة الباهرة دون أن تلتفت إليك، تسلك طريقك بين الأجساد بصعوبة، تتراءى الأشياء مقلوبة تماماً، الناس نسوا المشي على الأرض بأقدامهم فاستعاضوا عنها برؤوسهم، تصرخ بوجوههم.

- إنه زمن التيه.

وتمسك أحد المارة من كتفيه وتهزه بغضب مستعر وتخاطبه بمراره.

- احتلوا نواصي الحضارة التليدة.

فينظر إليك بدهشة ممزوجة بريبة، وتستطرد.

- أُستبيحت المدينة. هلموا إلى قلاعهم لنطّهرها.

ترخي يديك بيأس وتخاطبه باكياً.

- القلاع!!!.

ثم تهش ببكاء عميق آسر، وتستلقي على الرصيف مستشعراً برودة الأرض المغسولة بنسائم الليل الهابط وترى الأحذية المتخاطفة إلى أهدافها، زوجان من الأحذية تقفان إزاء عينيك، خلتها لأول مرة أنها لأناس فضوليين سيلقون عليك نظرة ما ويمضون، ولكن الحذائين بقيا ساكنين، تبصر شابين ينظران إليك بحزن، يتقرفص أحدهما أمامك ويمسكك من يديك برفق ويهمس.

- أستاذ.

لا ترد عليه، بل تُعّمق النظر في وجهه وتقول.

- هل أصدر الحاكم أمراً بقتلي.

رغم الحزن الآسر الذي يطوق عيني الشاب فقد ندت عن شفتيه ابتسامة كمياه النهر الذي يحبه، وهمس في أذنك بشيء من الحذر.

- ليذهب الحاكم إلى الجحيم.

وبعد أن ألقى نظرة حذرة حوله.

- أنهض أستاذ.

فتندهش من اللهجة المشوبة بصيغة آمرة، تقول وأنت تبتعد عنه.

- لا بد ان إدارة السجن أرسلتكما لتنفيذ حكم الموت بي.

فتتسع الابتسامة على وجه الشاب ويهمس.

- نحن من طلبتك في الكلّية دكتور. ألا تذكرنا أستاذ؟

فتقلب شفتيك وتطاوع اليدين وتمشي في وسطهما، وتسمع أحدهما يقول.

- هل تعشيت؟

وقبل أن تجيب تخطف بصرك صورة مدينة تتلظى بالنار تتصدر شاشة تلفاز مقهى على ناصية الشارع، فترتعد أوصالك وتدخل المقهى بومضة عين، تقف أمام التلفاز وتطفئه وسط ذهول الجالسين، ثم تتجه نحو منضدة قريبة، ترتقيها وتستوى فوقها واقفاً وتنشأ تتكلم... تتكلم عن القلاع و.... الطوفان، وتتهالك على الأريكة وتبكي بحرقة أليمة والوجوه الصافنة مطوقة بالرهبة، تشاركك بعض الوجوه حزنك المشروع النبيل، تنتشلك اليدان، تنخضل عيناك بالدموع، وتحس بطلائع الطوفان تتوالد في داخلك، يبحث عن خلاص... عن البداية، تقاوم يدي طالبيك وتلهج بقلب مثلوم مفجوع.

- دعوني.... لقد جاء الطوفان.

وتبكي.... تصفو روحك مثل الندى، وتوزع نظراتك في جنبات المقهى، لا ترى أحداً، وحدك حسب، واثنان من أولئك يخزرانك بحقد، يقوم أحدهما ويصرخ بوجهك.

- هيا... قم معنا.

فتلطم الساعد الممدود وتقول كالحالم.

- إنه بدأ بالوفود، وسيغسل الأدران؟

- كفاك تهريفاً، وطاوعنا.

تصحو تماماً، تنظر إليهما وتسأل.

- اين تذهبون بي؟

تبادلا نظرة ذات معنى، وقال أحدهما.

- حيث نشاء.

وتخرج بصحبتهما، وتنصهر في زحام العتمة والأجساد الساعية، ترى عيوناً بلون العشب والعسل والبحر تبحلق بك، بخوف، بعطف، بريبة... لا تبالي، بل تواصل، ويلوح ليل المدينة الحبيبة أمامك كسمكة صغيرة يافعة تسعى بخوف في عتمة البحر، ترى شاباً وفتاة متشابكي الكفين بحميمية، تلتقي عيناك بعينيها، ترتسم في بؤبويّ عينيها (فوبيا) عارمة وهي ترى الأصفاد في معصميك، تبتسم لها وأنت تحبس الدموع المنبجسة من مقلتيك كرشاش النافورات، وعندما تحاذيك تهمس لها.

- الطوفان قادم.

******

هتفت بهم.

- سكوت.

فكانت لنبرتك العميقة الآسرة وقع الصاعقة عليهم فصارت القاعة تسبح في بحر الصمت. همست.

- سألقي على مسامعكم خطبة عصماء.

إصطف نزلاء مستشفى الأمراض العقلية أمامك، صعدت أحد الكراسي الحديدية، نفخت أوداجك وخرج الصوت من فيك دافئاً دافقاً.

(أيها الماسكون برقاب الناس، أين المفر، الطوفان من أمامكم، الطوفان من خلفكم، الطوفان من شرقكم، الطوفان من غربكم، فما عاد لكم من منفذ سوى الموت أو النفاذ بجلودكم، فماذا أنتم فاعلون؟)

وعصفت القاعة بالتصفيق ورقص النزلاء بفرح حقيقي، ثم طالبوك بأخرى، فقلت لهم.

- سأسرد لكم واقعة حدثت لي.

واكتسحك الصمت من جديد، صمت يسبق نوءٍ عاتٍ، ثم خرج صوتك آسراً.

(في يوم ما، والجوع يقري أحشائي، شاهدت على شاشة التلفاز مأدبة كبرى أقامها الحاكم على شرف وفد من دولة مهيمنة، مائدة عامرة بكل ما لذ وطاب، أرانب وأوز وخراف وديكة حبشية مشوية محشية تقتعد تلاً من الرز المزركش بالكشمش والفستق والبهار والفلفل الحار والبارد، مسّورة بأرغفة خبز حارة طازجة، تحف بها خصائف العنب والبرتقال والموز والكرز والرمان وفواكه أخرى لا أعرف لها اسماءً، شعرت بمعدتي تصرخ، تلعنني، تلهبني بالشواظ، فقفزت من مكاني وولجت الشاشة رغم التشريفات والحرس وكتائب الحماية، انتصبت فوق المائدة

وخطفت رغيفاً واحداً... واحداً فحسب ثم أسلمت قدميّ للريح، لاحقتني الجموع، ألقيت نظرة وأنا ألجّ الأزقة العامرة بالفاقة، فرأيت الحاكم وضيفه يتبعه الحرس والجيش والعسس، ضاعفت الجري وشعرت بمرور الزمن أن قافلة المطاردين تضخمت، فقد انظم إليها النفعيون والانتهازيون والوزراء واللصوص.....).

يبدو من صمتهم المطبق أن الحكاية لم تعجبهم، فقلت لهم.

- سأحكي لكم ثالثة.

رضخوا مهللين.

- نعم... نعم نريد أخرى.

فحاولت أن توصل المعنى بأسهل الطرق، فهتفت.

(مرة سألني أحد من ألهؤلاء.

- هل أنت مدريدي أم برشلوني؟

ولما طال صمتي، سوّر معصّمي بالأصفاد واقتادني إلى الحجر لأني خالفت القوانين، فالقوانين التي جاء بها الحكام تحتّم أن تكون أحد شيئين، أما برشلوني أو مدريدي.)

فغص نزلاء مستشفى الأمراض العقلية بالضحك وساد الهرج والمرج وتقدموا إليك ورفعوك على الأعناق و.....

******

أخرجوك من المصح صباح هذا اليوم، قال لك المدير وهو ينظر إليك من خلف نظارته الطبية.

- حـاول أن تكـون هادئـاً دكتـور، فأمـل شـفائك في حالـة الإخلاد إلى الراحة مضمون مائة بالمائة.

وأعطاك علبة علاج.

وحالما وطئت قدماك الرصيف هاجمت خياشيمك رائحة النهر، ألقيت بعلبة العلاج تحت عجلات المركبات وعدوت في الشوارع كالسهم، وعندما وصلت الشط بمياهه الودودة، تأملته بعمق ومحبة، ثم اقتعدت شاطئه البليل، مددت قدميك حتى غمرت المياه ربلتي ساقيك المشعرتين، تنملت خلاياك وارتدتك انتشاءة عميقة فاستلقيت على الرمال وحدقت في السماء، كانت زرقاء لحد لا يصدق، وبغتة سمعت الصوت.

- الطوفان

التفت تبحث، لا أثر لأحد، ما خلا مخلفات الناس من أكياس ورقية وبقايا فتات الخبز وقلاع رملية مهدمة، التفت إلى الجهة الأخرى، الجسر الحديدي العملاق المزهو فوق المياه لا يزال متبختراً بذاته الجوفاء، هاجمك الصوت ثانية.

- الطوفان.

و... أبصرته أمامك، فوق الماء، كان وجهه ينطق بالحيوية وعيناه تبرقان، هتفت به.

-من أنت؟

من خلال ضحكة طفولية آسرة، أجاب.

- انا، أنت.

حدقت فيه مذهولاً، وهمست لنفسك.

- كم يشبهني.

وسمعت همسه خرير نبع طفل.

- تعال..

قلت كالحالم.

- انا انتظر الطوفان.

أجاب ضاحكاً.

- لقد حل الطوفان.

وناداك بمحبة باذخة.

- تعال

مشيت صوبه كالمغنط، انغمر جسدك في الماء حتى السرة وأنت تجاهد للوصول إليه، ألقيت نظرة خاطفة خلفك، كان الطوفان يدك قلاعهم، وواصلت المشي صوبه، الطوفان لا يزال يغسل الأدران، والشمس تحاول أن تبزغ، وأنت تسعى نحوه....

المغني

البداية

حين شرعوا بإخراجه من الزنزانة كان يغني، صفعه أحدهم على فمه، لم ينقطع غناؤه، سحلوه.... وكلما التصقت الأرض وتوحدت بلحمه كانت جذوة اللحن تتدفق كشلال عاصف سرمدي.

******

الإعدام

- ألا زلت على غييك؟
- .....
- لا تكن عاطفياً، وأنظر إلى ما أنت فيه بتعقل.
- .....
- أنت شاب، ولا زلت في مقتبل حياتك، حرام أن تضيّع نفسك.
- .....
- سأوفر لك كل سبل حياة رضية رغيدة، بيت، سيارة، زوجة، أرصدة في المصارف، وكل ما تطلبه.
- .....
- ضع عقلك في رأسك أيها الشاب وأنظر مصيرك.

وأشار الحاكم بإصبعه نحو العراء، كانت ثمة ساحة عارية تحت سماء غاب قمرها يتوسطها عمود خشبي طويل في أعلاه حبل

يتدلى على شكل حلقة في نهاية طرفه السائب، رفع المغني وجهه ببطء، كان شعره مبعثراً، ووجهه بالونة مدماة، تثقبه جروح مقددة، ولكن عينيه كانتا كجمرتين، رشق الحاكم بنظرة احتقار وأنشأ يغني...، صرخ الآخر.

- اعدموه.

******

التنفيذ

لم تكن الساحة مضاءة، وكانت السماء تعج بسحب قاتمة حين تدلى جسده متأرجحاً في الهواء، فيما هبت رويداً رويداً، ريح عاتية تصفر صفيراً مرعباً.

- نفذ ... سيدي.
- أيها الشرطيان.
- نعم سيدي.
- إرميا جثته للكلاب.

******

تقارير سرية وشخصية

-من تقرير سري جداً:

(سيدي الحاكم السعيد.... تم ما أمرتم به ورميت جثته في مزبلة مهجورة، وعندي الآن مواطن مخلص لا يُشك بولائه، يؤكد بأنه

رأى الكلاب تحلق حول جثته، ويُقسم بأنه رآها ترقص مثل البشر، ويُضيف -مقسماً على ذلك -بأنه سمع لحناً دافقاً ينطلق من جثة المغني..).

صرخ الحاكم

- أقتلوا الكلاب.

فانتشرت جثث الكلاب في المدينة.

- **فقرة من تقرير سري آخر:**

(..... والعصافير والبلابل والحمائم تزقزق وتغرد وتهدل أغاني المغني.)

هدر صوت الحاكم كمرجل.

- اقتلوا العصافير والبلابل والحمائم.... وكل الأطيار.

فهوت العصافير والبلابل والحمائم وكل الأطيار مقتولة.

- **تذييل من تقرير سري ثالث:**

(.... والقمر والسماء رآهما فلكي غيور يتسامران على أنغام المغني.)

دق قدميه على الأرض بعنف.

- اعدموا القمر واحرقوا السماء.

وصفع شرطياً أمامه.

- **استطراد من تقرير سري وشخصي جداً جداً:**

(والغريب أيضاً، أن الأرض أنبتت نباتاً لا يعرف سوى ترديد ألحان المغني)

- اقتلوا الأرض.

وعانق جبينه المتغضن أقرب جدار له.

******

المطاف

إستعد الشرطي وقف مرتعصاً.

- سيدي

صرخ به الحاكم.

- ما وراءك يا وجه النحس؟.

لهج الشرطي بنبرة مرتجفة.

- الشعب يا سيدي!.

تطاول صراخ الحاكم.

- ما به أيها الغبي؟

- الشعب يا سيدي.

- ما به؟ تكلم؟

- يغني أغاني المغني.

خرج الزبد من شدقيه وهو يهتف.

- أبيدوا الشعب؟

ظل الشرطي واقفاً مرتعد الفرائص.

- لا تقف أمامي كالصنم أيها الحمار.

- الشعب يا سيدي.

خرج الحاكم عن طوره وتطامن صياحه في أرجاء القصر.

- اللعنة عليك وعلى الشعب... قلت لكم أبيدوا الشعب.

- إنه يزحف الى القصر سيدي.

صوت يقترب وهتاف يسد منافذ السماء.

- ليس هذا فقط سيدي.

- وماذا أيضاً؟

- الكلاب.

- الكلاب المعدومة؟!

- والأطيار.

- الأطيار المقتولة؟

- السماء والقمر.

- ....؟!

- والأرض.

بخوف، يصير رجع الصدى لنبرة الشرطي..

- الأرض؟!.

الشرطي يلهج برعب.

- ألا تحسها تميد تحتنا؟.

صرخ الحاكم بنبرة يائسة.

- أقضوا على الشعب والكلاب والأطيار والأنهار والجبال، السهول والهضاب، الحقول والغابات، اقتلوا الأرض والسماء، أقتلوا..... ال.....

وكانت القاعة تضيق بهم، والقصر ينوء بالهدير ويتصاغر أمام أمواج المخلوقات الهادرة ويغدو بحجم حبة الرمل، وألحان المغني المنطلقة من الأفواه الزاحفة، تسد منافذ الأفق.

مقطع من أغنية شهيرة للمغني

كان لنا بيت

وسماء

ووطن

وفي يوم ما...

تسلل الغرباء إلى بيتنا

فاستباحوه

وأحرقوا البيدر

وصلبوا النهر

واغتالوا السماء

وألقوا جدث الشمس في الديجور

ولكننا...

مثل العنقاء، انبعثنا..

نعيد ترتيب البيت والحديقة والوطن

ونلقي الغرباء خارج مسارب الزمن.

******

أح

في أحايين كثيرة تحس أنها مجرد أصوات في الرأس ، سيما عندما يكون المرء ملقى في الفسحة الهلامية التي تترجرج في مساماتها تلوينات نهايات الصحو ومواطئ الكرى، .. أصوات ملحاحة صائتة تجعل الذاكرة تتيقن من أن هذه الطرقات التي تعاضد زغردة الفضاء العسجدي في فوضاها ، هي، لا مناص، طرقات سريعة لجوجة على أكرة باب، أزحت الكتاب عن صدري فوقع مرتطماً بسجاد الأرضية فأنّ بصوت كليم كتوم، سحبت عجيزتي من حافة الكرسي إلى الوراء فتهاوى كرشي الملتصق بحافة المكتب متضامناً مع حوضي الذي عانق مقعد كرسي المكتب، فسقطت على اثر هذه الحركة المتواترة لجسدي المكدود الشمعة الوحيدة المركونة فوق سطح المكتب على أوراقي المبعثرة فتراقصت في سقف مكتبتي النهايات الحادة للمكتبة العريضة التي تؤطر معظم الحائط الرابض خلفي، والسرير الوحيد الذي يمسك بحميمية طفل وديع طرف معطف ابيه، مع هزات بسيطة حيية للكرسي الهزاز الذي يلامس على استحياء الدرفة اليمنى للنافذة المسدلة بطريقة مبالغ بها ، تيقظت حواسي واستجلت المحسوسات المرئية والمضمرة في لحظة صحو، صحوة فجر ربيعي رائق، رفعت المذياع الصغير الذي يغمز لي بصفاقة مراهق منفلت بعينيه الصغيرتين الحمراوين، وبفم مفتوح تتدلق منه مسميات عصرية رائجة رخيصة قميئة تفصح عن كينونة الدمار والسواد

والليل والتقوض والخسوف، وكل مفردات الانطفاء والسديمية، ضغطت على زر في هامته فخرس المراهق المأفون، وفي هنيهة الصمت التي أهرقت بها صفاقات ونفايات اللغو الفارغ المائت، تسلمت أحاسيسي كنه ما تسّقطت أذناي.

-ثمة باب يُطرق..؟؟؟.

وبعد أن بلعت ريقي..

-إنه باب قريب..

وتوسلت الفضاء المقهور بهدنة بسيطة، وبعد رمشة هدب من الصمت، تيقنت من الأمر، فهمست بصوت مسموع.

-إن باب بيتي يُطرق.

ودون أن استأذن ذاتي تهاومت نظراتي تتهامس مع الوجهين الضاحكين داخل الإطار، انفتحت الكوى المصّفدة بعوسج التيه وتسللت خيوط الكركرة البريئة والضحكة القصيرة المكتنزة بالحنان فأنارت الغيران الرابضة المتجذرة عميقاً في الحشايا، فانطبعت ابتسامة مزّقت الحزم وأعتقت الروح وتسربلت بصفاء وعريكة وشكيمة، فانتعلت خفّي وامتشقت مصباحي اليدوي وسلّمت ذاتي إلى الطوار وخطاي تتنسمان خطى سلفي الأول نحو زورق أورشنابي.

وعندما حاذيت الباب وقفت كتمثال من ملح أتنصت.. ثمة أنفاس لاهثة أستشف طعمها المتوسل، وأيضاً، ثمة من باب الاحتمالات المحالة، وفي هذه الساعة المجنونة من الليل، وفي هذا

المكـان الموبـوء بـآتون مجاهـل غابـة الأرز، ثمـة.. كركـرة رضـيع يتموسق مع النواح المؤسي، خرج الهتاف من فمي همساً متسائلاً.

-من الطارق؟

وسمعت كلمة أجنبية أجيد التكلم بها.

-آه يا إلهي..!

وبعد فارزة قصيرة من صمت متواتر.

-إنه أنا..

فكرت..

-هل انتصر خمبابا؟!.

وفكرت أيضاً..

-بم سيصطبغ ماء النهر..... باللون الأرجواني؟! أم.....؟.

وفكرت أيضاً وأيضاً..

-هل ستستحيل عجائب الدنيا السبع إلى ست؟

وقبل أن استطرد بالتفكير أيضاً وأيضاً وأيضاً وأيضاً.. سمعت الصوت.

-أرجوك، أفتح الباب.

-ماذا تبغي؟

ونبرة أعمق استخذاءً

-لا تخف، إني صديق.

واعتقت من حشاياي المزنزنة ضحكة لم تتوقف قط، حتى تشرب بملمسها التهكمي الواخز ما اتسعت السماء وما امتدت

الأرض ثم عادت إلى فمي بعد أن نقلت الرسالة بكل جلاء، أن بقعة الأرض التي حباها الخالق بكل ما هو جميل وساحر، وجبل إنسانها على اجتراح ما هو توطئه لكل شآبيب العلم والمعرفة من كتابة وحضارة وعلم وفير، مهددة وللمرة العشرين ربما بأن تصير حجراً على حجر، حتى البوم لن يجد له موطئ مخلب لينعب عليها، وأعادني الاستجداء..

-أرجوك صدقني، إني صديق.

وغِبَ شهيق طويل.

-إني بحاجة لمساعدتك.

وانفلتت من فم لدن أفترضه لرضيع شبه عارٍ بعينين سوداوين وشعر مزغب حني، وجبين عريض يحتمي بهالة من سنا، وأنفاس دافئة دافقة أزكى من أوراد جنة عدن، مفردة واحدة تكررت أكثر من مرّة تختصر كل إجابات المنظرين والمفكرين والفلاسفة والفنانين والعلماء.

-أح....

هذه المفردة التي تكررت من الفم الملائكي المفعم برائحة الفردوس جعلت الكون بما يعتمل في أحشاءه من تفاصيل تتعرّى حتى من أعمق معاني العري نفسه لتتبدى على حقيقتها كائناً مشوهاً يحمل عصاً تبذر نثاراً من سَفُّود. وتكررت النبرة الرجولية المتوسلة..

- أرجوك!!

كيف أتصرف، وأنى لي بذاكرة تستغور الموقف الطارئ هذا، لم أتوقع قط من قبل أن أتصور نفسي في هكذا موقف، أحدهم، من الذين أمطرونا ويمطرونا بشواظ ما أمطر به الغزاة مدينة طروادة، يقف ببابي ويستجدي الدخول، ويتماهى مع نبرته هذه الـ (أح) الزاجرة الصادقة الحادة فيتشكل مع اصطحاب ذاتي المترددة سلم هارموني متشابك لا يتواءم البتة مع صوت مطرب الأوبرا الاحتفالي، كممت الفضاء حزمة صمت أجهزت على الضوضاء النائحة كعواء ذئب جريح يتهيأ لأنياب صحبه ورفقة غزوات صيده ثم تهادت تنهيدة عميقة صحبها بكاء طفولي حارق ينبئ عن الجوع المفري، فكرت... إنه حقاً عالم واقعي صرف وليس افتراضاً، ولن يستشف ذاتي من هذا النحيب غير نغمة الشجن والحزن والجوع، فقررت.

-سأفتح الباب.

أمد كفاً واثقة نحو الأكرة، أولج المفتاح، أديره، ينفتح الباب على بوستر يتنفس ويحيا ليس في الواقع حسب، بل في الذائقة أيضاً، إطارٍ ميتافيزيقي يختزن جندياً -منهم -متعباً، تشكل بدنه صورتان متضادتان، ففي كتفه الأيسر تتدلى رشاشة بماسورة رصاصية وثقوب متوازية لم أعاين مثيلاً لها من قبل، وفي الأيمن يشرق وجه رضيع بض يصفع الفضاء بتساؤل منسوج من الحيرة والغرابة والبراءة والجوع والعري، والمكوّن خلف هذين المتضادين اللذين تفصل بينهما باقة خيوط خضر متدلية من خوذة حائلة،

أشباح خائفة لبيوت متوازية تستحم بالعتمة والرعب والعدمية، وخلفها، في نهاية الزقاق ثمة أطيار وحوالق لابدة في أفاريز البيوت وفي نهايات الأشجار تصغي إلى العصف والقصف المنسلخين من سماء شديدة السواد.

-شكراً..

صحوت من تأملي، وضع يمناه على العتبة وشاركني الطوار.

-شكراً لسماحك لي بالدخول.

إندفع إلى الباحة مثل البرق، فواجهت ظهراً مرقطاً تطل من علياءه عينان طهورتان لرضيع وجد واحته، فانشأ يبتسم بتواصل..

واستدار يواجهني، خوذة تكبّل عينين لا أكتشف منهما سوى الأهداب المسدلة، وأنف أقنى وذقن مدبب غير حليق، وسمعت الصوت..

-أُريد مكاناً آمناً للطفل.

غاص وجداني الى نقطة غائرة تحاول أن تجلو لغز هذا الطلّسم، "**آمناً**" وتبصر ذاتها المجردة، الأمان، والأمان من الأمن، والأمن في اللغة من: أمن. أَمِنَ: أَمْناً وأماناً: اطمأن ولم يخف/ سَلِم : "أَمِنَ الشَرَّ"، "أمِنَ العِثارَ"/ بلدُ: اطمأنَّ فيه أهلُه.

وأين الأمان، يا هذا، مما تراه عيناك، وما تسمع منه أُذناك، مما فعلته يداك، وأيدي من تحرك يديك تماماً مثل محركي الدمى، لكي يتحوّل كل شيء ذي هيئة إلى مجرّد جدث، ورشني الرضيع بزخة منعشة من بكاء ثاوٍ مفرٍ، يفصح عن برقيات

احتجاج عما يجري حوله..

وأمام هذا الخيط المتواشج بيني وبين هذا الرضيع الذي يحمل سمات أبناء جلدتي، كان لا مناص من التصرف، فنظرت إلى عينيه الناهلتين وغمازيته الورديتين، وقرصته بمحبة وأنا أهتف له.

-اتبعني.

******

-لا تنظر إلى الصورة، كمن يتملى تمثالاً هارباً من فسيفساء الزمن المغتر كريش الطاووس.

كيف عنّ لي أن أهمس لنفسي كل هذا التزويق اللغوي الذي لا يتوافق قط مع موقفي، وأنا أتوسط الصالة المعتمة إلاّ من استغاثات أذيال ضياء شمعة تنوس في كوة بجدار، وهي تستفيء بالصورة. صورة رجل أنيق بربطة مميّزة تحاكي في توهجها إشراقة الوردة الحمراء في جيب جاكيته العلوي، وجنبه امرأة في ميعة الصبا بعينين عسليتين تنبت في عمق بؤبؤيهما محبة لا حد لعطائها، وشعر أسود فاحم مسترسل يغطي مثل حزم الشمس هامة طفل في مستهل السنة الثالثة من العمر، به مزيج من مزايا الوجهين الأبويين.

أعادتني جملة نطق بها الجندي.

-عائلتك؟

أومأت برأسي.. بلى، إستدار صوبي وهمس..

-جميل..

ثم نبر بحزن..

-إطار صورتي يفتقد الطفل..

لم أجبه، بل ركزت عينيّ على عينيه، لمحت فيهما مشروع دمعة. أسبل جفنيه، وانثالت روحه..

(كانوا يقولون عني، بحضوري وغيابي، إني طفل كبير، وهم في هذا ما ناكدوا الحقيقة أبداً، فأنا منذ اليفاعة، لم أحب، ولن أحب شيئاً أكثر من حبي للطفولة، فمنذ طفولتي وأنا أتنعم بفراديسها بنهم لا حدود لشراهته، ومروراً بمرحلة المراهقة، والشباب، وبعدها الرجولة المبكرة، لم يغادرني الطفل، بل بقي في جمار حشيتي يعيش حياته الحرة الفسيحة يمرح في دخيلتي وداخلي، ويدلق في روحي نزقه وطيبته وشفافيته، فتسربلت نفسي بجوهر ذلك الطفل الذي نبتت له لحية وأزغبت تحت ابطية أيكه من شعر أشقر، وصار هذا الطفل الذي يتمثل ناسوتي يبحث على سجيته وهواه عن رديف يقاسمني أيامي ولياليّ، يحتطبان معاً سنابل المحبة والعفوية، حتى صرنا، أنا وهي، هي الطفلة بهيئة فتاة تخطت عربتها موطئ الربع الثاني من قرن عمرها، نموذجاً لزوجين يتصرفان كالأطفال، ويتوسمان بسمة الطفولة، ويتمهران بكل ما يتمخض من الطفل مما هو بريء وجميل وساحر ماخلا شيء نتحسر عليه، ونحن نعيش هذا السباق المحموم لفك طلاسم المجهول من ابتكارات علمية مذهلة وخاصة في الطب، بيد أن الأصلاب والترائب بقيت خاوية خاملة، تضع علامة استفهام كبيرة

في نتائج الفحوصات التي أجريت لنا نحن الصبيين بهيئة شابين، بأننا سليمان لا صدع فينا بايولوجياً، ولكن العلم يقف حائراً أمام معادلة تقول إننا لا شائبة ولا مانع لدينا من الإنجاب، ولكن عدم حدوثه هو ضرب من الحظ، ثم تقول العجائز: إنها مشيئة الرب..)

اهتزاز عنيف رجّ الحي بفعل قنبلة أعاده إلى صوابه، إستدار على محوره وواجهني بعينين يتهاطل الدمع منهما غاسلاً درنات روحة المتجلية وصرخ..

-اللعنة على الحرب..

قلت في حدة وفي نبرة صائتة.

-إنها حربكم؟

أردف مع آخر حرف نطقت به..

-بل هي حربهم..

واستطرد..

-السياسة..

وغب فترة..

-لعبتهم..

ثم قال بنبرة حرون..

-من أجل الكرسي..

وأعطى ظهره للحائط..

-كرسي غير منظور، يحكم العالم.. ولا تعرف ملامح من يجلس عليه..

صحا على نظراتي الزجاجية وقال..

-أجل إنها لعبة أولتك الذين يتسابقون من أجل جعل ذلك الكرسي ملاذاً لمؤخراتهم..

وصم شفتيه على جملة ثاقبة..

-تلك هي الحرب..

قلت له..

-وأنتم..؟

-من...؟

-أنت وأمثالك؟

-نحن مجرّد بيادق..؟

واستطرد..

-مقسمون على قلاع وأفيال وأحصنة ووزراء وجنود..

ثم..

-وظيفتنا جميعاً أن نموت من أجل الملك.

وقطع علينا الحديث، الرضيع وهو يلطم الهواء ويصرخ..

-أح...

ويمسك بدمية الدب (ويني) التي أعطيتها له لإسكاته، ثم يلقيها بعيداً عنه وهو يلطم الفضاء.

-أح...

أعمق وأكثر حدّة، ثم أرتكن إلى الصمت، صمت مخاتل متمتع بمصمصة شفتين لدنتين لأصابع بيضاء، همس بحزن..

-الجوع سراب لا نهائي.

فتحت درجاً مسمراً أعلى الحائط المواجه للموقد وأخرجت علبة حليب وقنينة إرضاع لامعة صقلتها أصابع زوجتي المغرمة حد العي بالنظافة، وألقمت الإبريق إلى نار الموقد، وبعد حين كانت حلمة الرضاعة في الفم الوردي.. أنشأنا –معاً - نراقب الرضيع وهو ينهي قنينته ثم تسبل جفناه، وحين انتظمت أنفاسه، لاحت مني التفاتة لأجد الجندي منشداً نحو الطفل وهو يهمس بصوت ذي جرس طفولي..

(حنانيك أيُّها الملاك..

صدقني أيُّها البريء، إني مذ وطئت قدماي أسوار مدينتك لم استعمل سلاحي، وخصوصاً ضد البراءة، وإني حينما استقللت الطوافة عبر البحار البعيدة كنت أحمل في قلبي النداء الثاوي لقريني الآخر الذي أجبرتني هذه الحرب على مغادرته وكانت آخر تراسل بين أصابعنا، أن أترفق بالطفولة، أنى لسبابتي، يا رديف شهيقي أن تأمر الزناد برشق ضحكة -رضيعة -تنسل من ثغر بسيم، ولكني رغم هذا وجدتك، وكأن المصادفة أو العمد أو الترصد يمارسون لعبتهم السمجة معي، كي أسمع وأنا أتخّوذ كل هذا الضجيج للسرفات والطائرات والرصاص والقنابل، المتعاضدة كلها مع القمر الغائب، أو اللائط... اللائذ بالمجهول، صوت بكائك الذي أخرس في هنيهة بارقة كل هذا الصخب المسوس كي تصعد نبرة نحيبك مغطية كل شيء، وكاشفة زيف

الادعاءات المغتسلة بالصغار والإفتراض الكاذب، وليقوض كل الحجج التي لمعّت من قبل ترسانة الدعاية المكرسة بحرفنة لتأليب البشر من شتى الأصقاع لكي يقوضوا الشهيق من البدن، ويجعلوا الأجساد أسيرة زفير طويل، وسكون قشعريري أطول، يمتد من الأبدية إلى السرمدية، هذا "المورس" الذي تسلّمته جعلني اشرأب بعنقي ووظّفت لحاسة بصري ألف بؤبؤ ومليون شبكية تبحث عنك، فوجدتكما معاً، قريني الأنثوي وهو يقبض على معصمي ويخرجني من مكمني، وخطاك المغادرة جسد الأنثى المتكئ على الحائط وقد أمسى نافورة من دم، وعيناه مذهولتان فزعتان زجاجيتان تتمحوران حول جسدك الزاحف الساعي نحوي، وحين احتواك رديفي وقريني الناعم ضمك بين جنحيه كحمامة بيضاء مرتخية الجناحين، ثم وغب أن صمتت وأنت تحدق في صدره الريان سلمني إياك ودفعني برفق وهو يهمس..

-أذهب إلى المدينة..

لهجت بخوف..

-ولكنها لما تزل عصية..!

دفعني بلجاجة.

-أذهب ولا تجزع.

-والموت..؟

-أنت برفقة ملاك.

-ولكن أيّتها الحبيبة؟.

ولما تزل تدفعني برفق وثبات وهي تبتعد وصوتها ينأى في الجو ويتعاظم في فؤادي..

-جد له ملاذاً..

وأبصرت الهالة تطوقنا نحن الاثنين، وانفتحت –بغتة - أمامي دروب تحف بها أكاليل من نور تتكسر وتتشظى وتتحطم على أعتابها الاطلاقات والقنابل، والدروب هذه كلها تودي إلى عمق أزقة مصطلية بأثافي الجحيم، وكأن ثمة أمامنا سهم من ضياء يدل خطاي، وحين وصلت إلى باب دار هذا الرجل حلقت سجافات الدروب البارقة واعتمت الرؤى، فقط بصري تسّمر على الباب فطرقت الباب والليل والمدينة والكون طرقات استعطاف واستمطار واحتجاج وتوسل..)

وبصيرتي تتلقط بشغف هذا البوح المتهدج الذي انتبه صاحبه إلى كينونة نفسه وكنه المكان الذي يكتنفه وحقيقة الزمن الذي يعيشه، خلع خوذته فانسدل شعره على منكبيه فتبدى في حقيقته التي صفدتها الخوذة، فتنفس شهيقاً عميقاً، وألقى جسده الوسنان على المقعد الذي يلاصق المكتب، وأغمض عينيه، تمليته من جديد، أحاول أن أمنطق وضعي، وأرتب أرفف بصيرتي، هل أن ما أعيشه يندرج تحت مسمى فلسفة الـ (ما وراء) الواقع، في جلستي الفريدة في صالون فريد، في ليل فريد، داخل مدينة فريدة، بحرب فريدة، وكل ما تلمسه بصيرتي وبصري فريد، فهذا الجندي المتعب، الذي يبوح بنفس يتعامد بتقاطع مع مسحته وهويته التي

تقول أنه عدو، جاء من أشتات الأرض، موزعاً الموت على المدن والسهوب والبراري والنواصي الهاجعة الهادئة، ولكنه ببوحه - الذي تحاول ذائقتي أن تسبغ عليه الشك - أفصح عن طفل كبير يأبى مغادرة حدود الطفولة بكل ما تتسم به من نقاء، ولكن ما دليلي على صدق بوحه، ربّما هو يمثّل، وربما كان ممثلاً قبل أن يجنّد، وربما تدرب على الكذب، ولكن لم يمثّل ويكذب؟، وما الذي يجبره أن يفعل هذا؟، ففي أضعف الإيمان يترك الطفل لمصيره المحّتم، أو أن يلقمه أطلاقة تجندله في الحال، ولماذا يتحمل وزر مصير مجهول وهو يتجول في الأزقة والشوارع الملغمة سماؤها بالموت المتسكع كي يجد قنينة إرضاع لطفل أنقذه من حوصلة مدينة تستحم بالموت.

ندت عنه حركة متواترة ونهض فجأة وعيناه تدوران في محجريهما وبدوتا مثل عينين مصابتين بالرأرأة وحين رآني اختفت رعصته وأسبل جفنيه، ثم قال..

-للنوم سطوة لا ترد..

وتمطى عاقداً كفيه حول رقبته ثم طرقع عظامه، وبلا تفكير نظر الرضيع فألفاه مستسلماً لكراه، فأخذ يتملى غرفة المكتب، الذي حولتّه لضرورات الحالة الطارئة إلى بيت شبه مكتمل بين حيطان أربعة، ففيه المطبخ والصالة والمكتب وغرفة النوم، علق باقتضاب.

-الحاجة أم الاختراع.

ثم خطا نحو المكتبة الأنيقة بكتبها المتراصة، صار يتملاها باهتمام، وسمعت نبرته التي هي أقرب إلى التساؤل منها إلى التعليق.

-كل كتبك بالعربية، رغم انك تتكلّم بالإنكليزية أيضاً..

أجبته بهدوء..

-في الجزء الأسفل الأيمن ثمة مكان لما تبغي..

واستل كتاباً، رفعه إلى مستوى عينيه وقرأ بصوت جهير.

History Begins at Summer

فأكملت نبرتي التي أتميّز بها في باحة الجامعة.

S.N.Kramer

ثم قلت مستوضحاً..

-ترجمته إلى العربية (ناجية المراني) بعنوان (هنا بدأ التاريخ) وصدر ضمن منشورات الموسوعة الصغيرة تحت تسلسل (٧٧) عن دار الحرية للطباعة ببغداد عام ١٩٨٠.

قال..

-والكتاب صادر في لندن عام ١٩٥٩.

سألته بغتة..

-ما معنى سومر..؟

زم شفتيه وانطبعت على عينيه أمائر الحيرة، وهمس..

-لا أعرف.

قلت بلهجة آمره..

-تصفّح الكتاب..

وحانت مني التفاتة إلى الساعة المنضدية، كانت تشير إلى الثانية والثلث بعد منتصف الليل، وغاصت روحي في غياهب الزمن القصير المنفرش.

(-مصيرنا من مصيرك..

وتهالكت على كتفي، استاف انفي رائحتها الزكية، طوقتها بساعدي فلاذت تحت جنحي كحمامة بيضاء، وهي تتسلق وجهي بنظرة حب وتدله، بينما كنت مشغولاً بترصد ابننا وهو يقلب الدب الدمية (ويني) بين يديه وعيناه ترصدان ضحكته البلاستيكية الباردة، ثم يلقيه جانباً وتنشأ أنامله النزقة بالبحث عن أي شيء آخر..

-لن نتركك..

ضغطت على ظهرها برفق وهمست..

-أهلنا في الشمال، قرية صغيرة آمنة ستكونان بمأمن عن آذاهم.

قالت بتصميم أنثى عنيدة

-لن نذهب أبداً..

قلت وأنا أضمها أكثر إلى قلبي.

-حقاً..!

-أكيد..

همست بأذنها بنبرة حنونة..

-لنحتكم إلى ابننا.

ندت عنها ضحكة خافتة صادقة، وهمست.

-موافقة..

عمدت إلى الطفل، شلته من تحت إبطيه، ثم وضعته في حضني، نظر إلى عينيّ بنظرة تضاهي منابع الغدران في نقاوتها، ثم حول نظره ورشق أمه بغيمة ربابية من نظرات حيية، فهمست..

-بني الحبيب..

وصوبت عينيّ في عينيه وأتممت

-عفواً..

ثم بصوت رسمي متهيب.

-سيدي القاضي، بم تحكم بيننا؟

كركر بنبرة فرح .

-أمك ترفض السفر إلى أهلنا في الشمال... هل تحكم لصالحها؟

نظر إلى أمه بعيني كهل فخرته شواظ السنين ثم هزّ رأسه نفياً.. وأعاد عينيه إلى وجهي.

-وأنا أصر على سفركما إلى هناك

واختض بضحك طفولي لا حد لحبوره، ثم ألقى يديه نحو عنقي.. فالتفت إلى زوجتي والضحكة في فمي لها طعم الشهد في شمعه، وقلت بصوت القاضي..

-القرار الصادر من القاضي حاسم لا استئناف فيه.

وبعد صمت..

-الرحيل إلى الشمال.

وقطع علينا هذا الموقف الجميل الساحر صوت المذيع وهو يتحدّث عن التجييش الحاصل في أرجاء المعمورة ضد بلدي...).

وصفير حاد طويل أرجعني الى الصالة، لأجد الجندي يحاول بلا جدوى إنهاءه ووجهه يكتسيه الذهول، وأخيراً ومع آخر دفعة من الصفير الموؤود هتف من بين أسنانه..

-هذا مدهش!؟.

وأنشأ يقرأ بصوت متهدج.

"إن أول مدرسة في العالم كانت قد أسست في هذه البلاد الطيبة، بلاد ما بين النهرين، وكان ذلك قبل خمسة آلاف سنة، حيث عرف السومريون الكتابة لأول مرّة في التاريخ، وكانت المدرسة السومرية ثمرة اكتشاف الكتابة وتطورها، وتلك هي أعظم الإنجازات الحضارية التي أنجزها البشر عبر القرون".

رفع رأسه ونظر إليّ مذهولاً..

-هل هذا صحيح؟

قلت له.

-أنت قارئ سيء.

قوّس حاجبه.

-بل أنا قاري مواظب.

-من يجهل ماهية حضارة العراق يجهل القراءة..

قال في توكيد وتسليم..

-صدقت..

وعيناه تخوضان عباب صفحة جديدة من الكتاب.. انشغلت برّص قطع الشطرنج، كلٌ في موقعها وللجانبين فوق المربع المخصص لها، ثم قدمت بكفي اليمنى البيدق الأبيض خطوة للأمام، لتقوم كفي الأُخرى بتقديم بيدق أسود يقطع الطريق أمام الأبيض فيتوازيان مشكلين زاوية حادة بينهما وهما يتنكبان التحدي والإصرار في هزيمة الند، مسنودين بكراديس الفيلة والأحصنة والقلاع والوزير المحنك الجسور..

وسمعت صوت الجندي وهو يقرأ بصوت متأثر ومؤثر وعيناه لا تفارقان صفحات الكتاب.

"إن شريعة حمورابي تعود إلى أواخر الألف الثاني قبل الميلاد، وهي تحتوي على ما يُقارب ثلاثمائة بند واردة ضمن مقدمة وخاتمة، نقلت بعد اكتشافها إلى متحف اللوفر في باريس وما زالت تنتصب بجلال وشموخ في قاعة بارزة من قاعات ذلك المتحف، وتعتبر هذه الوثيقة من قبل المختصين بالقانون أول شريعة عرفها تاريخ البشر".

وقبل أن ينطق بأية كلمة تنم عن ازدياد الذهول والدهشة لديه وهو يخوض غمار بحر أرض الحضارات بقارب صغير بالكاد يطأ عتبات زهو وألق وديمومة هذا البهاء.. قلت له بلهجة حازمة..

-أكمل قراءة الكتاب..

وتسمرت عيناه على أكوام البنادق المجندلة على المنضدة وقد تمازج الأبيض والأسود في رقدتها، وعيونها مصلوبة نحو القلاع التي يحتمي في أهرائها الملكان المرعوبان، ثم ندت عنه نبرة تهكمية..

-عاش الملك..

وانتظر تعليقي ولكن شفتي المطبقة أيقنته أنه لن يتلقى سوى صدى تعليقه القصير، ثم قال بقنوط وحزن..

-مات الشعب.

همستُ لنفسي.

-شعبُنا لا يموت.

يبدو أنه تشرب جملتي، فشهر الكتاب المفتوح بيده وقال بصوت جهوري..

-حقاً، أنتم شعبٌ لن يضمحل..

سُيّط بنظرة جامدة، فأستطرد..

-ودليلي، ما أقرأه..

ثم قرأ..

"حين ترجمت بعض الألواح التي عثر عليها في نينوى في أواخر القرن المنصرم، إتضح أن أحدها عائد الى مكتبة آشور بانيبال الذي حكم خلال القرن الخامس قبل الميلاد، وإن هذا اللوح يتضمن حكاية عن الطوفان شبيهة بما ورد في سفر التكوين من كتاب العهد القديم. وقد عرف بعد دراسة هذا اللوح والألواح الأُخرى المستخرجة من المكتبة نفسها، قصة الطوفان هذه تشكل

جزءاً من قصيدة طويلة كان الكتاب البابليون القدامى يدعونها حلقات جلجامش وهي التي نعرفها اليوم بملحمة جلجامش."

قطع قراءته وحدق في عينيّ ونبر بإعجاب حقيقي.

-ما هذا الزهو؟!

وتشرب الفضاء بصرخة مباغتة فهرعنا إلى المصدر على عجل وعيوننا تسابق أقدامنا، كان الجسد البض يختض والصدر الغض العاري يرتعش متساوقاً مع الفم المفتوح على سعتيه والهلع المهيمن على البؤبؤين الصغيرين.. هتف..

-ما به..؟

همست..

-مرعوب..!

-مم؟

وقبل أن أرميه بنظره التأنيب والإدانة، انتصبت الذراع اليمنى للطفل وأشارت صوب وجه الجندي الحجري.

-أح..

حوَّل إليّ شفتين ريانيتين ورديتين بابتسامة شفقية مع همهمة تجاري نسمة جذلى، ووضع ذراعه المرفوعة على الصدر فوق القلب الصغير النابض بالمحبة والعفوية والطهارة، ثم ألقم إبهامه شفتيه وإنسابت منهما سمفونية تحرث الفضاء بأعمق معاني الحرمان من حجر دافئ وصدر أدفأ، وتجاهلنا تماماً منغمساً في عالمه الخاص..

رجعت إلى مقعدي، وهيأت له قنينة جديدة وآصرتها مع فمه

فتقبلها على الفور، رما الوجه الصواني المذهول بنظرة خاطفة وغطس في بيادر تعد بالشبع والدعة..

سمعت صوت الجندي أشبه بصدى مبتور..

-حفيد جلجامش.

-أجنتنا لها قدرة على تميّز الأسود عن الأبيض..

قال بنبرة لم أستجل مغزاها..

-لمن تنفتح المغاليق؟

أجبته بنفس النبرة الضبابية الصلدة..

-لمن يمتلك المفاتيح..

همس بشرود..

-نحن أضعنا المفاتيح في أديم الأوقيانوس..

همست بتوكيد..

-هذا إن كنتم تحملون مفاتيح المغاليق..

نظر إلى الرضيع ثم تحوّل صوبي، واستتلى..

-أنتما عصيان عليّ.

وبنبرة حادة خافته..

-تمتلكان نفس النظرة..

وحدق نحو لوحة تربض خلفي تمثل وجه "سرجون" ملك الجهات الأربع، ثم قال.

-لكيلكما نفس السمة، وبتماثلها مع سمة وجه اللوحة يتعزز يقيني.

وقطع تساؤله منتظراً الإجابة، وللمرة الأولى أحقق مراده..

-بم..؟

-بصرامة الملامح في الظاهر، وبالطيبة المخمرة في الباطن..

وبعد أن عطس، همس..

-وتتميزون بتلك الخيلاء والكبرياء.

ابتسمت موافقاً على استنتاجه.

-وما يحدث الآن خطأ..

سألته..

-كيف

رمق قطعة الشطرنج بنظرة تفحص ثم قال..

-هراء ما حدث في هذه الرقعة؟

-وهراء..

قاطعني بقنوط المكتشف المتأخر الخائب..

-هراء أن يجندل البيدق دون إرادته، وإن يساق إلى مربعات الموت المجاني، لأجل إدامة حياة السلاطين..

وأشرت بذراعي مشكلاً قوساً أرتسم على الحائط ذراعاً عملاقة تقتحم ذبالات ضياء الشمعة المتراقصة..

-والذي يحدث الآن..؟

-خدعة كبيرة.

وتأرجحت الأرض تحت أقدامنا فسقطت الساعة المنضدية وتفتت زجاجها ولكن العقربين بقيا راكضين في مداهما

يقضقضان من الغرفة والبيت والمدينة والكون ثوانٍ مترعة بالنذير والتسويف، وصفع وجنة هذا الزمان المخاتل والمكان الموجوع صرخة الطفل المتقطعة الهلعة فنهبت المسافة والتقطه من الأرجوحة أجندل أشباح الخوف في خليج عينيه وانشر أشرعة الطمأنينة في الأمواه المصطخبة الهائجة في لجة موقيه، عبر ضمي لبدنه المرتعش إلى جنحي فسرت الدعة إلى جسده ودفع كتفي بساعديه الطفلين ووهب عيني نظرة مؤثثة بالسكينة والطمأنينة، ثم رمى الوجه الحجري بنظرة غاضبة وصفع الهواء بقبضته وهو يهتف..

-أح..

وجاريته بنبرة استعارت طفولتي البعيدة..

-أح..

ورأيت الجندي يمسح وجهه بكف من يجلد ذاته..

-أح..

وألقى جسده المنتفض على الأريكة، وتناوش وجنتيه الصوانيتين بين راحتيه، وتحول إلى تمثال، زالت إشارات الجزع من وجه الملاك اللائذ على كتفي الأيسر، فصارت أنامله لوامس تدغدغ شعيرات وجهي وشاربي في رحلة تعارف بريئة وحين وصلت إلى أذنيّ قبضت عليهما بضغطة حيية لطيفة، فعصرت بدنه اللدن وفي حلقي غصة مريرة على أمه التي ارتحلت مرغمة إلى دار البقاء بفعل إطلاقة قناص منزوع القلب من أية رأفة، وفجيعة أب ينتظر الزوجة والابن، وحانت مني التفاتة خاطفة نحو الصورة أتأمل

الوجهين الودودين وأستحضر في روحي تلك النظرة المشتركة التي سبرنا كلينا، أنا وأنثاي أغوارها، والحافلة تبتعد عن مدى بصري في رحلتها الميمونة نحو الشمال وقد طوت في مآقي أمائر وجه طفلي الصغير الذي رفعته الأنثى إلى أعلى مستوى للنافذة، وهو يعانقني بنفس النظرة التي تعانقني الآن نظرات طفلي الجديد، فهمست له بحرارة وأنا أرفع وجهه إلى مستوى لواحظي....

-لا تجزع يا نبع، فأنت دائم التدفق.

وسمعت رنه بها أشارك تعاطف..

-الينابيع لا تجف يا صديقي.

قلت..

-الينابيع في تآصرها وتماهيها تكوّن النهر..

همس متفلسفاً.

-والأنهار، أنى ما حلت، وأي طريق سلكت تبث الحياة حتى في حبات الرمل الممحلة.

همست..

-وأنهارنا نسغ الحياة التي تشربت بها أديم الأرض أنى، وهي لصيقة مثل التوأم بصلصال أرض ما بين النهرين.

وأوصدت أسماعي وأنا أخلع خفّي وأدخل عليقة البراءة واتعبد تلك الأنفاس العبقة واستغور نسغ العينين، واصطاد طيور السلوى واستاف ملء روحي طعم المن الزكي الزاكي، فتسللت حنيتي تستأذن عالمه الطهور وأنشأت أدور في فيافي الفردوس البلوري

البكر، وفي واحة ظليلة هجعت كل أحزاني وتطهرت وائتزرت بالطراوة والنقاء والصفاء، فتودست ذاتي المستعرة وسادة روحه السمحة...

******

أنا هو شمش في الميثولوجيا القديمة..

ولأنني وضاء، شفاف، صادق، مانح، رقاني إنسان هذه الأرض المباركة إلى مصاف الآلهة..

أنا هي الشمس بالمعنى التداولي الشائع المعروف، أنا مرغوبة كفتاة تتمرى، تتغنج، في كل الأصقاع، أهب ذاتي لقوم وأعرض عن قوم آخرين، أنا بمقاسات مختلفة، قد تتشابه عند قومين متعاكسين في اقاصي الكون، أو قد تختلف وهما متحاددان، ومزاجي يتقبله، مرغماً، كل دبيب على الأرض، أو سابح في المحيط، أو محلّق في الفضاء، فقط، وأكرر هذه الفقط ما شاءت ذاتي متوقدة بالحياة، دون كلال أو ملل. فقط عندما أذهب نحو كبد سماء هذه الأرض الطهور، أرض ما بين النهرين، أمنح أهلها المتألقين الطيبين جمار ذاتي وحشيتي، وذاكرتي مزدحمة بالكثير الكثير من الأحداث والشواهد التي تحكّم عمق الوشيجة المتآصرة بين صلصالها والمتوالد من صلصاتها، ففي كل إطلالة من إحدى شرفاتي على الرواسي والبطون والحشايا والطمى، تتكلّم النهارات والليالي، الأصياف والشواتي، الجبل والتل

والـوادي والسـهل ، دجلـة والفـرات، وتـدون علـى الرقيمـات والصـحائف وأوراق الـبردي والقطـن، انجـازات ابـن هـذه الأرض البكـر المقدّسـة الـتي جـاوزت الأبعـاد الزمكانيـة لينسـج للأيـام والشـهور والسـنين والقـرون مـن السـنين قصـص وإبـداع الإنسـان المفكر الأول الذي حاك الحضارة بكل ألقها وسحرها على نول الخلق والإبداع والرقي اللاتي كانت سمة هذا الإنسان المختلف، ابن النهرين المباركين.

سـأخبركم بإيجـاز مـا يـترأى لـي وأنـا أطل مـن شـرفتي، وان مـا تختزنه بصيرتي من صور باهرة لإنسان يمحض تربته التي يسعى على بدنها الرخص كل ما هو رائع وقشيبي من سيرة عبقة، فها هـو حمـورابي بلحيتـه المقرنصـة وهـو ينهـي مسـودة قـانون الإنسـان الأول، وذاك هو كلكامش وهو يرّوض ذاته المتعطشة نحو ابتلاع عشبة الخلود، ويقنعها بحنكته وسعة بصيرته، إن الخلود ينبغي أن يكون للكل، من مبدأ أن الواحد مع الواحد يتممان الكل، وإن الكل لا يكتمل إلاّ بترادف الآحاد، وأتملى الطريقة الفريدة التي مشى بها لماسو بقوادمه الخمسة، يتأمله بإعجاب فريد، من أعتاب أسوار نينوى الزاهية الزاهرة شيخ واهن يتوكأ على عصا عتيقة في رحلة مجهولة المصير نحو أعتاب الصحراء المفضية إلى أرض ملغزة ليلقي على فراعنتها المزهوين، أحجياته وحزازيره التي حيّرت عقول جهابذتها وسحرتها ومنجميها وما استطاعوا فك مغاليقها، وهاهي الملكة الجميلة بين حماماتها يتسامى فيها الجسد ويتماهى في

حالق شاهق في رحلة أبدية مع صويحباتها وأندادها وخلانها، تاركة أوراق المدونين ومتسقطي التاريخ عبر القرون تجتهد في إيجاد تفسير لهذه الرحلة التي ابتدأت من نقطة معلومة، وانتهت في مطاوي الزمن العصي اللغز..

وتتقاطر أمام موقي صورة تتقطّر منها سواقي ذاكرة مسكونة بجمرة الإبداع التي تشذب كل الزوائد عما تعانيه الرؤية والرؤيا من بهاء ملوكي باذخ لعينيّ ذلك الذي أدخل بأخيلته الخارقة المدنية الزاهرة بابل في مخ التاريخ، وجعل ما شيّدته عريكته من أعجاز لم تفك طلاسمه حد هذه اللحظة، حين جعل الماء يصعد من الأرض متسلقاً شعاف الجنائن المشيدة بكل سحرها وبهائها وأنفتها دون مكننة كهربية التي لم تعرف لها خصيصة وانوجاد في بطون وطوايا التاريخ المدون المسند إلى الحقائق، وسيبقى هذا اللغز، تحليق ماء النهر إلى قباب جنائن طلسماً لن يُقرأ.

وها هي عيوني البارقة تتسلق الوهاد والسهوب متوقلة التلال، الواطئة منها، والمقتدية بالجبال، نحو شرفة من شرفات نينوى المهورة ببيوتاتها الرائعة وقصورها التي تتمايل طرباً بأقواسها المقصبة المذهبة، وهي تعانق وجه ذلك الملك المكلل بالنصر والغار، وهو يتأمل رقيمات مكتبته النظيمة التي تمتد تحت سقف عالٍ تتراقص في رحابه أشعة شمس الأصيل الفتية التي تتماهى معانقة الهواء العليل القادم من البوابة المقابلة القصية، وفي الجدارين المتوازيين المتقابلين تتكاتف، ككردوس منظم الآلاف من

الرقيمات التي تترجم رقي ورفعة الأرض المجبولة من طمى نهريه المكللين بتاج الطهر والنقاء، وفي الفناء، حيث يرنو الملك المظفر بالسعادة والهناء تتوزّع أجواق الفتيات المرّنقات كطيور رائقة متشحات بثياب قوس قزح، والشدو الناعم ينسل متناعماً ما بين الشفاه المتراقصة والأجساد المتوثبة..

كان ما كان

أمن وسلام في أرض سومر

أرض الشرائع السماوية

******

..... وليس ثمة من منطق المقارنة بين الكف البضة بالأصابع الليّنة الشفافة الناصعة التي تلامس أذني وتجعلني أغوص أكثر وأكثر في جنائن العالم الطفلي المزغب بالمحبة، وبين تلك الكف المحززة بالحبال الزرق والشعيرات الشقر وهي تحط كعصفور مجفل على كتفي وصوته يخترق بعبابه سكينة العالم اليوتوبي الذي يحتويني..

-هل أنت أديب؟

رششت عليه نظرة عتب واستفهام، وحين أراني أوراقي المكتوبة بكفه الطليقة، أجبته..

-لا...

ارتداه الوجوم والحيرة، وغب صمت قال بتوكيد..

-هذا النسيج الرائع من الجمل، هي كتابة أديب متمرس.

لم أجبه، بل رقيت جدار الصمت بيني وبينه، وعاودت رحلتي نحو الأصابع الحنونة اللدنة..

-هل لك كتب مطبوعة..؟

أدرت جذعي صوبه وقلت بحسم..

-لا...

-ولكن هذه كتابة أديب..

-إني آثاري.. وما قرأته هو جزء من تلاقح وتواصل بيني وبين مآثر الأجداد..

-إنك تقدم أجدادك بشكل أدبي راقٍ..

قلتُ في ابتهال..

-إنهم الطواطم التي تتكسر أمام قوادم انجازاتهم كل الكتابات المنمقة..

ودفع أوراقي المكتوبة أمام عيني..

-أنتم بحاجة إلى هذه..

نظرت إليه لتساؤل، فيم استطرد..

-إن تروجوا لتاريخكم..

وغب صمت..

-التاريخ المسكوت عنه بقصدية، والمّغيب عن الذاكرات عبر البحار البعيدة..

-شرح الآثاريون الكثير عن هذه الحضارة الرائدة..

-قد يكون هذا صحيحاً.. ولكنكم بحاجة إلى شيء مهم، إمّا تغافلتم عنه، أو تجهلونه..

هززت رأسي مستفهماً، فأكمل

-الترويج..

لفظت الكلمة في فمي باللذة الساحرة للعلكة الجديدة أول مضغها واستمعت إليه..

-قصور فضيع في تقديم هذا البهاء إلى العالم..

-قد تكون مصيباً..

-لستُ مصيباً حسب، بل أستطيع أن أقول إنكم ملامون ويجب أن تحاسبوا أنفسكم على هذا التقصير..

وترادف إلى ذهني سؤال جهرت به بأعلى صوت...

-كل هذا الألق، كان مطموراً في طوايا الطين والتاريخ، ومن كان مساهماً فاعلاً في أجلائه وسلبه، هم أجدادك ووضعوه في متون قاعات أنيقة مشيّدة، يؤمها الملايين من الزوار، ويسهب مختصون من لدنكم في شرح السجايا الوضيئة لهذا الحضور الحضاري الباذخ، ثم تجيئون الى المنبع لكي تدمروه.. أليست هذه طرفة سوداء..

أطرق خجلاً ثم قال..

-إنك على حق..

قلت بقهر حقيقي..

-إنكم، جلكّم، خيول مغماة، تقادون إلى ردم الغدران،

لكي يعم التصحر في حنية النفس البشرية..

قال بنبرة حزينة ممزوجة بالذنب..

-عودة إلى نقطة الصفر...

-أو نقطة العماء.

فانشأ يردد مفردة (العماء) مع نفسه أكثر من مرّة، ثم أخلد إلى الصمت، وعقب فترة قصيرة كانت عيناه تنظران إلى عنوان كتاب ما في المكتبة، وحشية بصيرته التي توهجت بهذا الفيض النفيس من العالم القشيب المكتشف. ارتحلت ذاته المتوقدة المستوفزة إلى هيولي آخر، فعانقت عجيزته المقعد الجلدي لكرسي المكتب واركن رأسه المصطخب في سكينة الحشية اللينة.

تأملته بإمعان.. كان في سحنته تعب مضنٍ، وفي ذقنه المتحدّر المتهالك سمة طفل متلبس بجرم صغير، وفي هبوط وارتفاع تفاحة آدمه مؤشر اصطخاب أمواه روحه المهتاجة، وفي ذلك الانقياد التام لسماته نحو السكينة التي يحاول اقتناصها من هذا الزمن المتدحرج محاولة ربان غريق يجتهد بكل جوارحه لاستبصار سفينة نجاة أو فنار.

وبغته، تساوقاً مع الاهتزاز المريع للبيت وتساقط أكوام الكتب المكدسة من سقف المكتبة وارتطامها بزجاج الطاولة وتهشمه إلى قطع توشحت بها أثاث الصالة، وصراخ الطفل المفجوع، قفز من مكانه فزعاً وركض نحو الباب يتسقط الومض البارق في السماء

على شكل ثريات تتوالد من طائرة مارقة وتهبط على مهل في الفضاء العالي لكي تتوزّع على الأبنية وخزانات الماء وشبكات توليد وتوزيع الكهرباء، وعلى الحصن الكاكية، وعلى المدينة بأسرها، فهمس لنفسه مفجوعاً..

-اللعنة..

همست بصوت ثاقب..

-هذا ما تجودون به.

نظراً إليّ بعينين زجاجتين.

-الموت..!!؟.

وتصادى في فضاء المكتبة صوت.

-أح..

صافعة، صادمة، زاجرة، ملتاعة، موجعة، ساخطة، محتجة،... فالتفتنا معاً، لنجد ساعد الطفل، والكف البضة وهي تتحرك صعوداً وهبوطاً، وقنينة الإرضاع تتموسق على صدى حركة صدره، وقطرات الحليب الجني الدافق يتقطّر من الحلمة لترسم مسرباً متعرجاً في الجسد المحتج الملائكي.

هرع إليه، وجثّا أمامه، أمسك بكفّه الأُخرى وتضرّع..

-إهدأ يا صغيري..

فرددت مع ذاتي.

-... يا صغيري

وتوسل به، كمن يتلو ترنيمة..

-آسف يا ملاكي..

صرخ الرضيع بقوّة ثقبت بلادة الذاكرات المنساقة إلى الافتراء

-أح...

حاول أن يضم الكف اللاطمة.. بيد أنها تملصت بحذق وانهالت على وجهه..

-أح.. أح.. أح..

نهض على عجل، وبخطى مجنونة تخاطفت أطرافه نحو الباب، تلقفه الطوار المقرور، صفعته أسياخ ضياء الشمعة على ظهره المتوتر المرتجف، رفع يمناه وواجه طلائع الظلمة المخاتلة، وهتف بمواء قطة ثكلى.

-كفى...

ودار على عقبيه دورة كاملة، وتواترت ذراعاه، وتلاقتا أمام موقيه ثم رفع كفيه المضمومتين نحو السماء، وابتهل..

-يا رب.

واقتعد البلاط قابضاً وجهه بكفيه، ولفه صمت تعاضد الفجر الوشيك معه، خطوت صوبه، تقرفصت إزاءه، وجدته ولأول مرّة، إنه إنسان لا يمت بأية صلة لثيابه المرقطة المحززّة والمسورّة بالعديد من الحلقات والمفاتيح والأكواب والقناني المسّخرة لإدامة آلة القتل، إنسان متجرّد من أي سمة تشير إلى حاله الراهن، إنسان شفيف واجه السديمية والجهمة بشفق ينهض من أعماقه، يشهر بوجه تينك الجحافل كفاً تترادف بغضبة أكبر أح..

مددت كفيّ وأمسكت كتفيه وأنهضته، استند على كتفي وانقاد، انقياد الظل الى الجسد، نحو خطواتي الوالجة الى المكتبة، أجلسته على الأريكة، وعمدت إلى قدح من الماء، شربه دفعه واحدة، ثم انقاد كالمسوس نحو ابتسامة الرضيع التي حممته بماء منعش يستشف منه أزكى طعم، طعم الألفة والصداقة والفرحة المؤثثة بالمحبة الباذخة، أنحنى بكليته نحو الرضيع الذي مدّ أنامله وصارت تكتشف تضاريس وجهه، فأُضيء جبينه بقبس من نار ونور، وأغمض عينيه منتشياً، ونهايات الأصابع التعبة اللدنة تقتلع من ذاته العاقول والشوك والتيه والوهم والخواء..

ورأيت -فجرئذٍ -منظراً لو رسمه فنان قضى عمره بين الألوان والطبيعة، واقتسم أيامه وسنينه في استكناه أعمق الوشائج الغنية بأنسينتها، لن يحظى البته بمثل هذا الإكليل الوضاء من تشابك إنساني مذهل..

وطرقت بعنف دقات الساعة الجدارية المعلّقة إزاء الباب، فعدنا، من الفردوس، واستقصت ذواتنا في هنيهة خاطفة بين دقة ولاحقتها واقعنا المرير، فأرّبد وجه الرضيع، وعض حلمة القنينة حتى أدماها، وانتفض هو رافعاً روحه بجسده الرخص العضل، وارتدته لهنيهة أمائر الحزن والكلال، راوزني بنظرة لم استكنه هويتها، ورشق الرضيع بنظرة ترسف بالمحبة والأسى، عدّل من ثيابه، مشى صوبي، وقف ينظر إليّ بعمق ثم هتف.

-يجب أن أذهب.

لم يصدر مني أي تعليق..

-شكراً لك يا صديقي..

ثم رمى مكتبتي بنظرة ود.

-وشكراً لهذا القبس الذي أنار طريقي..

واستدار ناظراً لخريطة العراق، وقال.

-وشكراً للأرض المباركة..

ومن خلف كتفي، ابتسم بوجه الرضيع وهمس..

-شكراً يا أصدق إنسان..

واستدار نحو الباب، مشى خطوتين، وقف، دار حول محوره..

-إني صديق..

لم تصدر عنّي أيّة نأمه..

-لن أبقى هنا، مهما حصل.. وأنى ما حللت سأتكلّم عن الميزوبوتاميا، وعن الأوهام التي أرسفونا بها.

وبغتة إتجه نحو المكتبة، وحمل كتاب كريمر وقال بنبرة ودودة.

-سيكون هذا زوادتي، إن سمحت لي بأخذه..

ارتسمت على شفتي بسمة ود وهمست.

-لك هذا..

بادلني الابتسام ثم طلب برجاء صادق..

-أريد أن تودعاني..

هززت رأسي موافقاً، عاد إلى منضدة الكتابة، تناول قلماً،

كتب بعض السطور، ثم أنهض عينيه.

-هذا هو عنواني ورقم هاتفي، ربما سنلتقي في المستقبل.

وانحنى على الطفل وشاله بين حناياه، مشى خلفي وأنا أقوده إلى عين الباب الذي أدخلته منه قبل سويعات، فتحت درفته ووقفت، رفع الطفل المجهول إلى وجهه وطبع على جبينه قُبلة حارة، كان الطفل هادئاً وعيناه تبحثان بلجاجة عن كنه اللحظة القادمة غب هذا الصمت والسكون. مد كفه، مددت كفي، تصافحنا بود حقيقي، همس.

-أطلب منك الصفح.. عن كل الأذى والدمار الذي ألحقناه بكم.

شدّ على يديّ بمودة وحرارة، وأعطى وجهه للفجر الوشيك.

******

السيرة الذاتية

هيثم بهنام بردى

قاص وروائي وكاتب أدب طفل

الاسم الكامل: هيثم بهنان جرجيس بردى.

- ولد في العراق/ عام ١٩٥٣.
- عضو اتحاد الأدباء العراقيين.
- عضو اتحاد الكتاب العرب.
- عضو نقابة الفنانين العراقيين.
- عضو فخري مدى الحياة في دار نعمان للثقافة اللبنانية.
- رئيس تحرير مجلة (إنانا) التي تعنى بشأن المرأة.

حضر وشارك في مهرجانات وملتقيات عديدة أبرزها:

- الندوة العربية الأولى للقصة الشابة التي أقامتها مجلة الطليعة الأدبية في بغداد عام ١٩٨٠.
- ملتقى القصة العراقية في بغداد عام ١٩٩٥.
- ندوة الرواية العربية في بغداد عام ٢٠٠٢.
- الملتقى الثالث للقصة القصيرة جداً في حلب عام ٢٠٠٥.
- الملتقى الرابع للقصة العراقية (ملتقى د.علي جواد الطاهر) في بغداد ٢٠٠٨.
- مهرجان المربد ولعدة دورات.

- مهرجان الجواهري عام ٢٠١٠ وعام ٢٠١٢.
- مؤتمر ثقافة الأطفال الدولي الأول في بغداد عام ٢٠١٠.
- معرض إيطاليا الدولي للكتاب في إيطاليا (مدينة تورينو) عام ٢٠١٤، ألقى فيها محاضرة في "القاعة الزرقاء" عن الأدب السردي العراقي الحديث.

أصدر الكتب التالية:

١. الغرفة ٢١٣/ رواية – مطبعة أسعد – بغداد١٩٨٧.
٢. حب مع وقف التنفيذ/ قصص قصيرة جداً – مطبعة شفيق– بغداد ١٩٨٩.
٣. الليلة الثانية بعد الألف/ قصص قصيرة جداً – منشورات مجلة نون – الموصل ١٩٩٥.
٤. عزلة أنكيدو/ قصص قصيرة جداً – مطبعة نينوى – بغداد ٢٠٠٠.
٥. الوصية/ قصص قصيرة – دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة – بغداد ٢٠٠٢.
٦. الذي رأى الأعماق كلها/ كتاب انثيالات – مطبعة ميديا – أربيل ٢٠٠٧.
٧. مار بهنام وأخته سارة/ رواية – مركز أكد للطباعة والإعلان – عنكاوا – أربيل ٢٠٠٧.
٨. قديسو حدياب/ رواية – مركز أكد للطباعة والإعلان –

عنكاوا – أربيل ٢٠٠٨.

- صدرت باللغة السريانية عن دار (منارة) في أربيل عام ٢٠١١ ترجمة كوركيس نباتي.

٩. تليباثي/ قصص قصيرة – دار نعمان للثقافة– بيروت ٢٠٠٨.

- صدرت طبعتها الثانية عن دار الينابيع بدمشق عام ٢٠١٠.
- صدرت طبعتها الثالثة عن دار أمل الجديدة بدمشق عام ٢٠١٥.

١٠. التماهي/ قصص قصيرة جداً– دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة – بغداد ٢٠٠٨.

١١. قصاصون عراقيون سريان في مسيرة القصة العراقية/ إعداد وتقديم – إصدار المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية – أربيل ٢٠٠٩.

- صدرت طبعتها الثانية عن دار تموز للطباعة والنشر – دمشق ٢٠١٢.
- صدرت ترجمتها إلى اللغة الكوردية من قبل أحمد محمد إسماعيل وصدرت عن المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية عام ٢٠١٢.

١٢. القصة القصيرة جداً في العراق/ إعداد وتقديم– المديرية العامة لتربية نينوى– الموصل ٢٠١٠.

- صدرت طبعتها الثانية (مزيدة ومنقحة) عن دار الشؤون

الثقافية العامة – وزارة الثقافة العراقية -بغداد ٢٠١٥.

١٣. القصة القصيرة جداً/ الأعمال القصصية ١٩٨٩–٢٠٠٨ / دار رند للطباعة والنشر والتوزيع– دمشق ٢٠١١.

١٤. نهر ذو لحية بيضاء/ مجموعة قصصية/ دار رند للطباعة والنشر والتوزيع – دمشق ٢٠١١.

١٥. سركون بولص عنقاء الشعر العراقي الحديث/ إعداد وتقديم– إصدار المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية_ أربيل ٢٠١١ .

١٦. قصاصون عراقيون سريان في مسيرة القصة العراقية القصيرة جداً/ دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع – دمشق ٢٠١٢.

١٧. روائيون عراقيون سريان في مسيرة الرواية العراقية/ دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع– دمشق ٢٠١٢.

١٨. أرض من عسل/ مجموعة قصصية/ دار الحوار للنشر والتوزيع– اللاذقية، سوريا ٢٠١٢.

١٩. كتّاب أدب طفل عراقيون سريان في مسيرة أدب الطفل العراقي/ مطبعة شفيق– بغداد ٢٠١٣.

له في أدب الطفل الإصدارات التالية:

١. الحكيمة والصياد/ مسرحية للفتيان/ مطبعة بيريفان– أربيل ٢٠٠٧,

٢. مع الجاحظ على بساط الريح/ سيرة قصصية للفتيان– دار

رند للطباعة والنشر والتوزيع– دمشق ,٢٠١٠

٣. العشبة/ مسرحية للفتيان/ مطبعة الديار– الموصل ٢٠١٣.

كتب صدرت عن أدبه:

١. حبة الخردل/ دراسات نقدية عن تجربة القاص هيثم بهنام بردى في كتابة القصة القصيرة جداً/ إعداد وتقديم خالص ايشوع بربر/ منشورات اتحاد الأدباء السريان– الموصل ٢٠٠٥. صدرت طبعته الثانية عن دار رند للطباعة والنشر والتوزيع في سوريا عام ٢٠١٠.

٢. شعرية المكان في القصة القصيرة جداً– قراءة تحليلية في المجموعات القصصية لهيثم بهنام بردى/ د. نبهان حسون السعدون/ دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع– دمشق ٢٠١٢.

٣. تجليات الفضاء السردي– قراءة في سرديات هيثم بهنام بردى/ إعداد وتقديم: أ. د محمد صابر عبيد/ دار تموز للطبعة والنشر والتوزيع– دمشق٢٠١٢.

٤. أسماء في ذاكرة المدينة، هيثم بهنام بردى/ إعداد وتقديم وحوار نمرود قاشا/ مطبعة شفيق– بغداد ٢٠١٢.

٥. شباط ما زال بعيداً، دراسات نقدية في المجموعة القصصية أرض من عسل لهيثم بهنام بردى/ إعداد وتقديم: جوزيف حنا يشوع/ مطبعة الديار– الموصل ٢٠١٢.

٦. الكون القصصي، تجليات السرد وآليات التمظهر، قراءة

تحليلية في المجموعات القصصية لهيثم بهنام بردى/ محمد إبراهيم الجميلي/ مطبعة الديار– الموصل ٢٠١٣.

٧. الثريا، دراسات نقدية عن تجربة القاص هيثم بهنام بردى في كتابة القصة القصيرة جداً/ إعداد وتقديم: خالص ايشوع بربر/ مطبعة شفيق -بغداد ٢٠١٤.

٨. جماليات تشكيل الوصف في القصة القصيرة، قراءة تحليلية في المجموعات القصصية لهيثم بهنام بردى/ د. نبهان حسون السعدون/ دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق ٢٠١٤.

٩. المهيمنات القرائية وفاعلية التشكيل السردي في مجموعة نهر ذو لحية بيضاء/ إعداد وتقديم ومشاركة: الدكتور خليل شكري هياس/ دار نينوى للطباعة والنشر والتوزيع -دمشق ٢٠١٤.

دراسات أكاديمية عن أدبه:

- حاز الأستاذ محمد إبراهيم الجميلي على شهادة الماجستير بدرجة "جيد جداً" من كلية التربية الأساسية / جامعة الموصل بتأريخ ٢٠١٣/٣/٣ عن رسالته الموسومة (السرد في قصص هيثم بهنام بردى القصيرة).
- حازت الأستاذة نادية نزهة سليمان على شهادة الماجستير بدرجة "امتياز" من كلية التربية للبنات/ جامعة تكريت، بتاريخ ١٧/ ٢/ ٢٠١٤ عن رسالتها الموسومة: (جماليات

القصة القصيرة جداً/ هيثم بهنام بردى مثالاً).

- حاز الأستاذ همام حازم عطا على شهادة الماجستير بدرجة "جيد جداً عالي" من كلية الآداب/ جامعة تكريت، بتاريخ ٢٠١٥/١/١١ عن رسالته الموسومة (العتبات النصية في سرد هيثم بهنام بردى القصصي).

الجوائز:

- حائز على جائزة ناجي نعمان الأدبية اللبنانية لعام ٢٠٠٦.
- حائز على الجائزة الأولى في مسابقة القصة القصيرة التي أقامتها دار الشؤون الثقافية في وزارة الثقافة العراقية عام ٢٠٠٦ عن قصته القصيرة "النبض الأبدي".
- حائز على الجائزة الثانية في مسابقة وزارة الثقافة لمسابقة أدب الأطفال/ دار ثقافة الأطفال/ جائزة (عزي الوهاب للنص المسرحي) عام ٢٠١٠ عن مسرحيته الموسومة (العشبة).
- حائز على الجائزة الثانية في مسابقة القصة القصيرة التي أقامها قصر الثقافة والفنون في محافظة صلاح الدين عن قصته الموسومة (الرسالة).

ورد اسمه:

- في كتاب (موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين– الجزء الثالث– صفحة ٢٨١) الصادر عن دار الشؤون الثقافية العامة عام ١٩٩٨ لمؤلفه الأستاذ حميد المطبعي.
- في كتاب (موسوعة أعلام الموصل في القرن العشرين – صفحة ٦٠٠) الصادر عن وزارة التعليم العالي والبحث العلمي/ جامعة الموصل – مركز دراسات الموصل– عام ٢٠٠٧، لمؤلفة الأستاذ الدكتور عمر الطالب.

الترجمة:

- ترجمت قصصه إلى اللغة الإنكليزية والهولندية والفرنسية والإيطالية والسريانية والكوردية.